مايوان

غواية الجبل والأحلام

ترجمة: د. محسن فرجاني

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

غواية الجبل والأحلام

رواية

مايوان

الترجمة عن الصينية

د. محسن فرجاني

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: مايوان

عنوان الكتاب: غواية الجبل والأحلام

ترجمة: محسن فرجاني

X

العنوان باللغة الأصلية: 冈底斯的诱惑

الكاتب: 马远

X

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

X

ر.د.م.ك: 978-9921-775-51-8

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

X

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

b & r book program

Arabic translation copyright @ 2022 by Beijing Normal
.University Press (Group) co., ltd

The translation is in collaboration with the Beijing Normal
.University Press (Group) co., ltd

all rights reserved

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

غواية الجبل والأحلام

«طبعًا، لكل إنسان الحق في أن يصدِّق أو يكذِّب ما يشاء،

خصوصًا حكايات الصيد، فهي بطبيعتها تتأبَّى على التصديق،

مهما حاول المرء جاهدًا أن يتلمس لها سبل الإقناع»(1)

(1) تنسب الكلمة، في بعض النسخ المنشورة من الرواية على الإنترنت، إلى الكاتبة السويدية «لاغروف»، الحاصلة على نوبل في الأدب عام ١٩٠٩، وهي أول امرأة تحصل على هذه الجائزة.

(١)

أعرف أن مجيئي إليك في هذه الساعة المتأخرة سيجعلك تسبني وتلعن أجدادي، وهذا حقك دون مواربة، ولك أن تأخذ راحتك وتلعن وتشتم كيف شئت، فلم يكن هناك بدٌّ من أن آتي إليك هذه المرة، مهما حصل، حتى لو نهرتني وانهلت عليَّ سبًّا وتقريعًا، اسمع، هل ستفتح الباب أم ماذا؟ هه؟ المطر هنا يسقط بغزارة، صدِّقني، قم اذهب ناحية النافذة وأنصت جيدًا، ولا يذهبن بك الظن أني أتبول لدى الجدار، كلا، بل هو المطر حقًّا، فكيف لمثانتي أن تختزن كل هذا القدر من الماء؟ هيا، انهض فهناك أمر مهم جدًّا، بل يمكنك القول بأنه على أعظم قدر من الأهمية، قم افتح الباب بسرعة فقد أغرقني المطر ونفذ البرد في أوصالي، لا داعي إلى أن تتظاهر بالنوم، فقد لاحظت أنك أطفأت الأنوار حالًا حين كنت أهم بالنزول من فوق الدراجة، وأنت تعرف أني ألجأ الآن، ثانية، إليك ولست أمزح بل الأمر في غاية الجد!

أنا نفسي لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الموضوع إلا منذ قليل، وهو ما أصابني بالقلق وجعل النوم يفارقني؛ فالمسألة ليست هينة، ولا يمكنني الآن الخوض في التفاصيل وأنا واقف مكاني هكذا، غارق في الوحل والمطر وراء بابك، والجدران لها آذان، وعن نفسي فسأطلعك على كل شيء دون مواربة، هل تظن أن ثمة من يستطيع خداعك؟ فماذا لو أقسمت لك على صدق ما أقول، وأنا بالمناسبة، في سن لا يسمح لي بالتخريف وهذر القول.
ولأصارحك إذن! فقد جئتك اليوم أدعوك إلى الاشتراك في فريق المغامرة الكشفية بصفتي قائد المجموعة نفسها، وبالمناسبة فنحن نحتاج إلى عدة بنادق وآلتي تصوير من النوع الممتاز، وأيضًا نحتاج إلى عدد من أشجع الشبان، لمَّا فكرت في الصحبة كنت أنت أول من خطر في بالي، وكنتَ أول من أبادرُ بالمجيء إليه، خصوصًا أني قرأتُ ما كُتب من حكايات أسطورية عنك وعن أخيك الأصغر.. أقصد تلك المقالة المنشورة بعنوان ««لوقاو» المثل الأعلى للشباب المغامر».. انظر، هأنذا أمتدحك تحت سمعك وبصرك، وبالتأكيد فلا يليق أن

أضع نفسي أو أضعك في موقف حرج، فأنا أعرفك منذ سنين، صحيح أنها ليست بالطويلة جدًّا، لكنها أيضًا ليست قليلة، ولم يحدث على مدى تلك السنوات أن حاولت الثناء عليك وجهًا لوجه. وقد أتيت إليك اليوم، راجيًا أن تفتح لي الباب، وهأنت تتجاهلني وتضطرني إلى أن أحادثك من وراء الجدران هكذا، وقد تعمدتُ أن أسمعك صوتي عاليًا، كي تعرف أنه أنا الذي يدق بابك، وليس «ياوليان» هذه المرة، باعتباره قد اعتاد مضايقتك! والحقيقة أنه هو من كان يكلمنا عنك وعن أخيك «لوآر» لذلك كنت أشعر نحوه بالامتنان، فقط، لأنه عرَّفني إليك.

الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو.. ما الذي جعل «ياوليان» يقول:

«لدى الشطآن دنيا مترامية الآفاق أيضًا»؟

وأنا لا أفهم لماذا انحشرت لفظة «أيضًا» في هذه العبارة، وما فائدتها بالضبط، إلا إذا كان ياوليان قد عرف مبكرًا جدًّا أنك سوف تلتحق بالجامعة، وتذهب إلى «التبت» بعد التخرُّج، وأنك ستعيش أحداثًا ومواقف تضمها قصة بعنوان:

«الجهة الغربية: عالم واسع الأرجاء».

وإلا فلماذا قال ياوليان: «لدى (شرق) البحرعالم مديد الأفق، أيضًا»؟ لا شك أن ياوليان يعرف كل شيء.. يا للسماء! مَن ياوليان هذا؟

(٢)

ذلك هو «تشيونبو» الذي لا يجيد التكلم بالصينية، بنفس القدر الذي لا تفقهون به حرفًا من اللغة التبتية، وعمومًا فتفضلوا.. اشربوا الشاي! أنا كنتُ، لما قصصت هذا الأمر بالليل على ياوليان (لماذا ياوليان، هنا، مرة أخرى؟) حكى لي بدوره حكايتك مع الكلب فإذا هي حكاية مؤثرة جدًّا وكان الكلام كله عما رأيناه بأعيننا، وكنتم تجيئون في كل ليلة، والتأثر بادٍ في الوجوه، وأنا مثلكم، وقتها كنت في الخمسين من عمري وكلامي كله يدور حول أيام الثورة، أيام أن التحقت بالخدمة في الجيش الثامن عشر، ودخلت مع الداخلين إلى منطقة التبت في سنة ١٩٥٠ أي منذ ثلاث وثلاثين سنة، هكذا من دون أن تتعبوا في الجمع والطرح والحساب. وساعة دخولي التبت كنت شابًّا في مقتبل حياتي، أرتدي الزي العسكري.. هيا يا تشونبو، اشرب الشاي، تفضّل! من ناحيتي فلست أفكر بالعودة من حيث جئتُ. حتى عندما وجدت اسمي في قائمة العائدين، للمرة الثانية، فلم أكن أنوي الرجوع ورأيت أن أبقى حيث أنا. وقتئذٍ شعرت للمرة الأولى بآلام المعدة، ثم استفحل الداء فيما بعد وبقيت وحدي، لا أحد يؤنس وحشة العمر، لا زوجة ولا ولد. صارت الأيام تأخذ مني أكثر مما تعطي، هاكم انظروا.. حتى شعري أخذ بالتساقط مع الأيام، وإذا تخيرنا وصفًا مريحًا للنفس، فسأقول إن رأسي صار «خفيف الشعر»، مع أن الوصف الصريح والموجع أيضًا يقال دائمًا من وراء ظهري.. إذ يوصف هذا الرأس بأنه مثل «بطيخة صلعاء» وأيًّا ما كان الوصف فليس يهم! لأني قد اعتدتُ كل ما عساه أن يقال وليس هناك ما يستحق الغضب، ثم إن الجو هنا رائق ومهيأ تمامًا للقراءة العميقة والتأمل والكتابة، من دون أي كدر. أعرف طبعًا أنكم تهزءون بي وتضحكون عليَّ.. تقولون في سركم إني كاتب مزعوم، يتخيل نفسه صاحب إبداع مشهود.. معكم حق، فقد مرت سنوات كثيرة دون أن يصدر لي شيء ذو قيمة، وكل المسرحيات التي كتبتها كانت نتاج الخمسينيات، كلها تنتمي إلى ما تسمونه، في مصطلحاتكم العلمية، الكتابة الاحتفالية أو التمجيدية. ومستواي الثقافي، أصلًا، ليس بالشيء الرفيع لولا ما قرأته وتعلمته أثناء فترة الخدمة العسكرية التي لم تزد على سنوات ثلاث بالتمام، بعدها

استكملت الدراسة وقمت بتثقيف نفسي رغم ظروفي الفقيرة، فأنا ابن أسرة معدمة، ولولا الحزب الشيوعي ما تعلمت شيئًا، وبالتالي فمن الطبيعي أن أمتدح الحزب وأتغنى بأفضاله وأمجاده، أقول لك هذا بكل صراحة، من دون لف أو دوران.. اشرب الشاي!

للأسف فأنا لا أدخن؛ لذلك نسيت أن أجيء ومعي سجائر لتحيتك، كل الشباب يدخنون هذه الأيام.. هه؟ طيب، نعود إلى موضوعنا، حيث إنهم اعتبروني كاتبًا ذا باع طويل في الإبداع، وخصوصًا أني جربت الترحال إلى تلك المناطق البعيدة، التي أطلقوا عليها: «مناطق الحكم الذاتي» وكان العمر قد تقدم بي دون أن يكون لي إنتاج وافر من الكتابة الإبداعية، في أول طريقي إلى الكتابة بدأت بموضوعات بسيطة للفريق الفني الثقافي بالوحدة التي كنت تابعًا لها، بعد ذلك عملت فقرات من المونولوجات الفكاهية، تدور حول مشاهد من واقع الحياة بالمعسكرات، ثم تعمقت رؤيتي الأدبية فكتبت مسرحية من فصل واحد، قُدّر لها أن تفوز بالمركز الثاني على مستوى الفرق الفنية للجيش ككل، وبانتهاء الخدمة لم يكن أمامي إلا أن أعمل في القسم الثقافي في منطقة الحكم الذاتي، باعتباري مبدعًا شابًّا، في تلك الأثناء كنت قد أتممت كتابة مسرحية من ثلاثة فصول، كتبتها في سنة ألف وتسع مئة وسبع وخمسين. السنوات تأخذ من عمر الإنسان الكثير لكي تمنحه فتات موهبة، والفلاحون هناك كانوا يقولون في أمثالهم السائرة: وراء كل بيدر سبع مئة سنة من الزرع وثماني مئة عام من الحصاد. ومع ذلك فقد مرّت عليَّ أيام كثيرة لا أكتب فيها شيئًا سوى مذكراتي، لعلكم لا تصدقوني عندما أقول هذا، لكنها الحقيقة، فلم أكتب إلا المذكرات الشخصية، لم أكتب حتى خطابًا واحدًا فلم يكن هناك من أُرسل إليه خطاباتي، مات أبواي وأنا طفل، وجدتي التي تربيت في حجرها وأنا صغير، لا تقرأ ولا تكتب، والمذكرات التي دونتها فيما لا يقل عن ثلاث عشرة كراسة صغيرة، لا تحتوي على أحداث مهمة أو أخبار كبرى هزَّت الدنيا، بل كلها أشياء شخصية جدًّا عديمة القيمة، فأنا رجل بسيط لا أريد وجع الدماغ، خاصة أن الأوضاع يمكن أن تنقلب فجأة، فتقوم حملة هنا أو حركة هناك، وترتبك الأحوال وتقع الكوارث فوق رأسي، هذا في حالة إذا ما كتبت شيئًا مثيرًا للمشاكل فتلقفته الأيدي الساعية إلى الإيذاء وإثارة المشاكل.

كنت قد عثرت، في السنة الفائتة وأنا ألملم أشيائي القديمة، على صورة جماعية أظهر فيها بجوار القائد «تشانغ كوهوا»(2) مع باقي أعضاء الفريق الفني بالوحدة، كما عثرتُ على شهادة الجائزة التي فزت بها، وقلت لنفسي لا بد أن أكتب شيئًا عن هذه المناسبة، وليس معقولًا أن آكل مع الناس خبزًا وأعيش معهم أيامًا غالية من العمر، ثم تنفرط الذكرى هباء؛ وبناء على هذا فقد أمسكت بالقلم والورقة وقررت أن أكتب.. احترت، من أين أبدأ وأين أنتهي، وماذا أكتب بالضبط، فكل محاولاتي السابقة انصبت على كتابة مسودات لنصوص مسرحية، وبالتالي فلم يكن أمامي إلا أن أكتب نصًّا مسرحيًا، هذا ما فكرت فيه، وقلت نعم.. هذا هو المعقول طبعًا، وبالفعل ظللت أفكر في الكتابة، طوال سنتين، دون الوصول إلى نتيجة، صحيح أني كتبت مسودات كثيرة.. سبع مرات وأنا أحاول الاهتداء إلى محتوى يرضيني، دون فائدة، وكان معنى هذا أن أبدأ محاولات أخرى جديدة.. ربما سبع محاولات أخرى عسى أن أصل إلى شيء. والمسألة مهمة هذه المرة لأنه قد يكون آخر عمل في حياتي الأدبية أدفع به إلى القراء وأغادر الساحة؛ لذلك يتحتم أن يخرج على الوجه الأكمل. من هنا فكرت في أن أكتب مسرحية تاريخية، عن البطل «تشيانغ تشوجيان سان».. بطل تاريخي هو، بطل قومي من منطقة التبت، ثم إنه من أحب الشخصيات الأسطورية إلى نفسي، قيل إنه نال لقب «الوزير الأعظم» من أحد الأباطرة على عهد أسرة «يوان»(3). وللعلم، فقد استطعت عبر سنوات عمري التي قضيتها في التبت أن أتعلم اللغة المتداولة هناك، كتابة وقراءة، نظرًا إلى انغماسي وسط الناس وذوباني في خضم الحياة، مختلطًا بشتى الفئات، سواء أكانوا من علية القوم أم من المتنفِّذين الكبار والموسرين أم الفنانين والرسامين الهواة والفلاحين والرعاة، إلى السماسرة والتجار.. كان لي أصدقاء كثيرون من كل فئة. ومن بين فئة الصيادين، عرفت «تشونبو» واتخذته صاحبًا، خصوصًا وقد لمست فيه قوة الشخصية وأصالة الصينيين البسطاء، المقيمين في المناطق الغربية البعيدة كل البعد عن بيئاتهم التي شهدت نشأتهم الأولى، وبالطبع فقد استأذنته في أن أكتب عنه فسمح لي، بشرط أن أقص الحكاية على أصدقائي المقربين، الذين أثق بهم كل الثقة.

«ياوليان» قائد الفريق، في حين كان «تشونبو» أول اسم في قائمة العضوية.

(2) اسم علم، يفيد معنى، كقولك: «تشانغ مجد البلاد» هذا، إذا كان وراء التسمية مقصد!

(3) أسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨).

(٣)

مُقامك في هذا التل وعيش أيامك صار جزءًا من طبعك وطبع الأشياء، حيث الخلاء سهل منبسط ترقطه الشجيرات وحلفاء الوديان ونباتات شتى، لا أول لها ولا آخر، تلقي كسوتها الزاهية في الأنحاء مع بدء المواسم، ويصير ملء المنحدرات نجيل وأُشنان حائل لونها مضفورة الورق بالشوك والإبر، تميل إلى الاخضرار مع كل يونيو، فيروق منظر التل وقد تشعبت في جنباته نضارة لا تخطئها الأبصار، وما إن يمضي نوفمبر حتى تستعيد الحشائش صفرتها القاتمة، وينضو التل عن نفسه رداء كان بالأمس قشيبًا، وتبقى أنحاؤه المتفرقة أرضًا ملحية بوار، لا تزهو بالكلأ أبدًا، فيعافها الرعاة وقطعان الدواب. لكن التل سكناك وموئلك، تقيم بكنفه لا تبرح ساحته، كأبيك، وسط كل ذلك الخلاء المديد، لا يسعى حولك سوى الجرذان وسط الشقوق الغائرة المتصلة، أحدها يفضي إلى الآخر ويلتحم بدهليزه، وأنت.. أنت تمضي وسط السهل ببندقية صيد قديمة على كتفك، تحث الخطى، فتتدافع الفئران وتنكمش في مخابئها، ترنو إليك.. وأنت، تمضي كعادتك غير حانق عليها، فلطالما امتدت بكما الآجال، خلائف يتري بعضها في إثر بعض. في جحورهم يتكاثرون مثلما يتناسل قومك، تعيشون جيرانًا على تعاقب الزمان. تدفّقت تعاريج الغدران فيما بين الأرض البور والخلاء المعشوشب، فزحف الخصب إلى الوادي وهو يزيح في طريقه ملوحة السهل البائر، وينبت بوادر مرعى للسائمة من الدواب، كم صادفت في طريقك بجوار الخلجان أرانب برية، وهي تتقافز أمامك فلا تصوب إليها فوهة البندقية التي لم تفارق كتفك، بل كنت تطلق وراءها صفيرك الهادئ، وتتابع خطواتها القصيرة الهاربة، كأنك في قرارة نفسك تفهم أسرارها وتتجاوز عن دروبها المخاتلة.

لطالما كنت تمشي ضد التيار، تعاند دفق الجريان وتذرع خطى متمهلة عند قمم التلال، سواء في خضرتها النضرة أو مع اصفرار العيدان، في كل أحوالها كنت تتجه إليها وئيدًا، تتهادى خطواتك وكأن روعة المنظر هنالك قد أسكرتك، كأنك ثمل من مشهد الآفاق

ونشوتها، سكران وأنت حاضر الوعي بتمامه.. رجل التل أنت، صائد جوال بحنايا الجبل المقدس(4) ابن الشواهق الصخرية، ومثلك خير من يدرك تمامًا قيمة غزلان المسك، ذلك النوع الثمين من الأيائل، وتعرف مبلغ ما تغله من ثروة طائلة، ببضع رصاصات.. فكيف بك وقد مررت بقطيع الأيائل الشاردة، تتقافز إزاءك على مرمى حجر منك، تتطلع إليها مليًّا ولا تصوب نحوها بندقيتك المليئة خزانتها دومًا بالرصاص؟ ألا تعجبك بطون ذكور الأيائل وهي تحمل في ثناياها أثمن مستحضرات الطب والعلاج؟ تطلُع فوق منحدر سامق الذُّرى، ترى قمته المغطاة بالجليد فتظنها دانية الخطى.. وهي بأقصى المدى، وتعرف بأن الهواء شحيح في هذه الأجواء العالية، مما يؤثر في قوة الإبصار.. أنت ابن هذا التل، ابن الرؤوس الشواهق التي لم يسبق لخطاك أن بلغت ذروتها، بل لم يسبق لأحد قط أن بلغ منها المنتهى. تلك البقعة الوضاءة تحت نور الشمس، مكمن الغموض والخطر وانفلاق الكتل الجليدية وانهياراتها المفاجئة، تلك أشياء تتربص بك، قد تعرض لك في أي حين، في أعماقك تدرك ذلك جيدًا؛ فالجبل ذو مسٍّ شيطاني.. هو الجسم الأكبر من سلسلة جبال «كانديس» التي تقوم فوق أعلى هضبة في العالم بأسره، تعمر جنباتها بكائنات من كل نوع، رغم ندرة المروج والغابات والسهول ذات الكثافة الشجرية المديدة.. موجودات من أصناف شتى كان الإنسان أمكرها حيلة - فوق أجناس من الطيور والدواب والسباع.. كنت، كأبيك، ألد خصم لها جميعًا، سوى أن الرجل قد لقي حتفه بين مخالب الوشق، الذي ظل حياته كلها يداوره في آكام الجبل ومنعطفاته، ولم تبقَ منه في ذاكرتك سوى كلماته التي أوصاك بها ذات يوم.. «انظر جيدًا، فوراء هذا التل تكمن الدببة السوداء والنمور، ليكن حذرك كله من الوشق، فهو أشرسها وأخبثها دهاء.. هي أصغر كل ما سيلقاك من السبع، لكن ما أشدها بأسًا عليك!»

تلقفتَ البندقية من أبيك وصرت صيادًا بحق الكلمة، ومع ذلك فلم يخطر لك مرة أن تصوبها نحو أي من كائنات الجبل الصغيرة، حتى الثعالب.. انظر، كم أوقعت من ذئاب، دون أن يطرف لك جفن، كم استعر شغفك بأكثر الوحش ضرواة، كالنمور والوشق والدببة، وصرت مقصد تجار الفراء في أقصى البلاد، جاءوك من الهند ونيبال، خاضوا وعثاء السفر والطريق بحثًا عن «تشونبو» شيطان الصيادين، ساكن القفر والصحاري البعيدة.

قطعة واحدة من فراء الدببة تعني بالنسبة إليك ثلاث مئة طلقة من الرصاص في خزانة بندقية صيد، مثلما تعني حوصلة الصفراء في أحشاء السباع مقدار زوجين من الأساور العاجية، هذا، فوق ما تحصل عليه من خزانة رصاص كاملة عندما تسلمهم أربعة مخالب، لا تزيد ولا تنقص مخلبًا واحدًا. حتى الغمد الفضي المحلَّى بالزخارف، ذلك الذي يتدلى من حزامك، كنت قد حصلت عليه مقابل النمر الأرقط الذي قطعت دابره رغم كونه أضخم سبع وقعت عليه عيناك، ساعة أن التقيته وجهًا لوجه وراء الصخرة التي لم يفصلك عنها سوى خطوات.. هجم عليك رأسًا فصمدت له مصوبًا في صميم ما بين ذراعيه المنفردتين، كاتمًا أنفاسك لحظة الضغط على زر الإطلاق.. مات وهو منطلق تجاهك.. مات وجسده ما زال مندفعًا إليك، فانغرست مخالبه في جبينك، وصرت تحمل ميسم الجرأة أينما وليت وجهك، والتاجر الذي وعدك بأعلى سعر بين التجار كافة ما زال ينتظرك بفارغ الصبر في القرية.
تأملت مقبض الخنجر المدلّى في غمده من خاصرتك. أعجبك، وكنت تقول في نفسك..
موافق على كل شروطك موافق، حتى لو طلبت رأسَي نمرين آخرين، لا مانع عندي! فأنت لا تدرك أن هذا التاجر بالذات يستطيع أن يبادل ثلاثة خناجر في أغمادها الفضية بعظام نمر واحد، دعك من فرائه وجلده وأحشائه خصوصًا إذا كان النمر في حجم نمر كبير الجرم!

لستُ في حاجة إلى أن أحكي قصصك في اصطياد الدببة، فهناك حكاءون أقدر مني في رواية فصول مطولة من سيرتك في هذا الموضوع، عندك مثلًا الأمريكي فوكنر والروائية السويدية «سيلما لاغروف»، وهناك فيما أذكر ذلك الفيلم الياباني الشهير الذي كان يحكي قصة كهل اشتهر بصيد الدببة فأين لك بحكائين يروون تلك الأحداث التي لم تزل تعلق بذاكرة أهل القرية، يوم أن محقت رأس وحوش الجبل بعد أن امتلأت منه رؤوس التلال والسهول فزعًا، على مدى مسافات تتجاوز الأميال، في واحدة من أبهى مآثرك الجليلة على الأيام، فزت يومها من الغنيمة بجلد الفريسة حيث طرحته فتغطى منه جدار بيتك طولًا وعرضًا، ومن ذا يملك أن ينسى يوم أن استأجرت اثنين من أقوى القصابين لتقطيع أوصال الدب، فما استطاعا إلا بشق الأنفس أن ينصفاه في كتلتين كبيرتين! من ذا يجسر أن ينسى

رحلتك التي ذهبت فيها للقنص، فظللت في البراري عشرين يومًا، بين مطاردات متصلة إلى أن فزت آخر المطاف بمأربك؟

ما أبعد الشقة بينك وبين أبيك! قد عرفناه طوال عمره مطاردًا للوشق البري، أما أنت فسيرتك كلها مرتبطة بالدببة، صحيح أنك لم ترث عن أبيك قوامه الفارع وبدنه المتين، لكنك تهوى تلك الضواري، وتعرف تمام المعرفة أنها ليست غبية بأي حال، وأن ضخامتها لا تعني على الإطلاق قلة حظها من الذكاء والحيلة والمهارة، كذا قلت لمن هرعوا إليك يومذاك.. قلت إنه على الأرجح الدبّ الأسود، وبهذا أقنعت من جاءوا يطلبون منك نجدتهم. بهذا أقنعت الرعاة الذين لجؤوا إليك طلبًا لمشورتك كصياد خبير.

«كان الدب طويلًا جدًّا، بهذا القدر».

كان القائل يشير بيده، يطوح بها عاليًا بكل ما في طاقته، حرصًا على ألا تضيع أية تفاصيل خاصة بطول قامة الوحش، ورغم أمانته المفرطة في الوصف فقد قلت في نفسك إن الخوف كاد يقتله.

«نحيف الجسم لكن قامته طويلة، وقوته خارقة، انظر.. كانت مخالبه بهذا القدر».

تحت وقع الخوف كان يتكلم، ومثلك لا تغيب عن فطنته أشكال الدببة وأحجام مخالبها.

«لم يدلني عليه إلا فزع الثيران واضطرابها، فوقع في قلب الرعب، تناولت البندقية وأخذت أتلفت حولي، ثم نظرت أمامي فإذا هو قبالتي، بقفزة واحدة صار بمواجتهي مباشرة، ولم أكد أرفع بندقيتي حتى أطاح بها بعيدًا.. لا تقل إني كنت أحلم، أبدًا، فقد حدث ما أرويه لك الآن، رأيته بعيني هاتين رأيت مخلبيه بكل وضوح، المخلب الواحد قدر إصبعين في كفي بل وأكبر، انظر.. هكذا بهذا الحجم».

أشار بيديه موضحًا مبلغ ضخامة المخلب الواحد في كف الدب، وقد ركبه الذعر فعلًا على ما بدا من ملامحه في تلك الساعة.

«قفز بسرعة عجيبة، في أقل من طرفة عين أصبح أمامي، قبل أن ألتقط أنفاسي وأرفع البندقية مصوِّبًا تجاهه».

رغم خوفه البادي فقد كره أن يبدو أمام رفاقه من الرعاة جبانًا قليل الحيلة، لكنك من بين الجميع، كنت الوحيد الذي يعرف تمامًا كيف تقفز الدببة على هذا النحو من السرعة البالغة، سواء أكانت هي الباغية أم الطريدة.

«لم أعهد في حياتي دبًّا بهذه القوة، حتى لقد أطاح ببندقيتي وكسر مقبضها كأنه يقصف فرعًا ذابلًا من شجرة، وانثنت الماسورة فما عادت تصلح لشيء».

لم تفكر في أن تطلب منه إحضار البندقية لترى ما أصابها، وكيف وقع بها التلف؛ لأنك كنت تعرف جيدًا أنه لا يملك واحدة منها وتعرف حجته من أن الدب أطاح بها بعيدًا جدًّا بحيث لم يعد بإمكانه العثور عليها، كنت تعرف في قرارة نفسك أن هذا ما سيجيبك به، ومع ذلك، فقد استدار ودلف إلى الخيمة القريبة وجاءك ببندقية صيد ملتوية الماسورة، ساعتها استولت عليك الدهشة، إذ لم يكن يخطر شيء من هذا في بالك؛ ولأنك صياد مجرِّب فقد كان عليك تفسير سلوك الدببة في مثل هذه المواقف، وبالفعل، فقد هداك تفكيرك إلى أن الوحوش لا تطيق كل آلات ضرب النار، خصوصًا الدببة، ولذلك فقد كان طبيعيًّا أن تسارع إلى تحطيم البندقية.. هو تفسير بدا لك معقولًا، لكنك لم تقله في حينها، لئلا توقع بالراعي المسكين في مزيد من الحرج أمام الناس؛ ليس لأنهم أكثر منه شجاعة بمواجهة الدببة فمثل هذه الشجاعة مزعومة، وإنما لأنك قنعت بأن تمرر له اختلاق مزاعم خيالية في موقف يريق ماء وجهه على رؤوس الملأ، ثم إنك تدرك طبع السباع وما تلقيه في النفوس من روع، فلكل هذا التمست له العذر.. من صميم قلبك.

قال إن الدب، للغرابة، لم يمسسه بأذى!

«لم يكترث لي، واستدار فهجم على قطيع الثيران، وانتقى أضخم رأس فيها وسحبه بقرونه، رغم استماتة الثور في التخلص من براثنه، وخواره المتصل ومحاولته المروق منه

بكل وسيلة، إلى درجة أني توقعت أن ينطحه في بطنه أملًا في الخلاص، كل هذا وأنا في غاية الفزع، ثم رأيته يلتوي بجسده والثور يدور معه، ويحاول التملص منه فهنالك حمي غضب السبع وأخذ على قرنيه، كل قرن بيد، وباعد ما بين ساعديه فانشق رأس العجل قطعتين ممزقتين اختلطت فيهما الدماء بزبد المخ ودهنه المهراق، ومن شِق الرأس تدلت عين ثور في حجم قبضة الكف، ولا تسل عما انغرس في قلبي من الروع ساعة أن وقعت عيني على هذا المنظر، فانتحيت جانبًا أراقب المشهد على مسافة».

لم تقف على سبب اختلاقه الحكايات لكنك تعرف أنه يميل إلى الثرثرة، تلك خصلته المتأصلة فيه وإن كان مظهره يدل على أنه طيب القلب كثيرًا. والرعاة نادرًا ما يقبلون على هذر القول والثرثرة.

«الثور ضخم.. وزنه يبلغ نحو الثلاث مئة كيلوغرام.. نعم، بهذا القدر أو ربما أكثر، ومع ذلك فقد رفعه الدب وحمله على كتفه ومضى، ورأس الثور المشقوق نصفين مدلّى وراء ظهره، والدم يسيل منه مختلطًا بدهن المخ المتساقط..».

«بعد أسبوعين بالتمام، كنت عند منحدر التل ولاحت مني نظرة إلى شيء ملقى بين الصخور، فإذا هو الرأس المنقسم، لم يدلني عليه سوى القرنين البارزين فيما بقي من الجيفة».

لم يأتك مستنجدًا، وحكايته التي رواها حالًا، كانت قد وقعت منذ شهرين. كان يحكي كشاهد عيان عن الدب وقامته المديدة مع نحافة جسده وضخامة مخالبة التي تشبه الأصابع.. جاءك وقال إنه لم يكن يمشي على أربع ككل سبع ضار، ولم يتسلق سورًا ولا جدرانًا، بل معتدل الهيئة يمضي على قدمين، وإذا جرى رمح رمحًا فلا تلحق به الأبصار. قال إنه ليس الشاهد الوحيد على هذا، فهناك العشرات غيره، وبالفعل فلم يمضِ شهران اثنان حتى التقى أربعة آخرين شهدوا الواقعة بكل الأوصاف السالف ذكرها.

«تمامًا كما ذكر لك.. رأيت الدب يعدو بأسرع من لمح البصر، في غمضة عين وجدته قبالتي، لا أدري من أي ناحية أقبل عليَّ، وقبل أن أبتلع ريقي من هول المفاجأة اختطف عصاي من يدي، العصا التي أسوق بها القطعان، كسرها نصفين وعاد من حيث جاء بنفس السرعة الخاطفة التي أقبل عليَّ بها.. بنفس القامة المعتدلة، اختفى في لحظة مثلما جاء».

«منطقتنا هذه كانت مسكونة بالسباع فيما مضى، لكنا لم نرَ فيها دبًّا مديد القامة مهزول الجسم، بمخالب طويلة على شاكلة الأصابع الآدمية.. أنا، لما سمعت الشبان يرددون هذا الكلام استغربت وقلت لنفسي إنهم يهرفون، كالعادة، فكم رأيت من الدببة في حياتي، ولولا أني أعرف شكلها جيدًا لصدقت الأقاويل، وفي تلك الليلة تحديدًا انتبهت إلى نباح الكلاب المفاجئ، وبضراوة غير عادية، كأنها احتشدت معًا في جماعة كبيرة واحدة متراصة في مواجهة غريب قادم في منتصف الليالي، وأحسست أن في الأمر شيئًا ما، خرجت أستطلع الحال وفي قلبي جرأة سنوات عمري التي تخطت السبعين، وأنا أعرف تمام المعرفة أن المنطقة مسكونة بالدببة من قديم، ساعتها كانت الليلة مقمرة فرأيت السبع لدى سياج الغنم، في الضوء الغامر رأيته يمد يده التي بدت بها الأصابع الضخمة الطويلة، ولم أكن قد رأيت من قبل دبًّا ذا كف تبرز منها الأصابع الضخمة بهذا الشكل، أما هو فلما لمحني خارجًا انتقى شاة فحملها ومضى، متمهلًا وبهدوء تام، على عكس ما أشيع عن ركضه السريع واختفائه في لمح البصر. كان نحيفًا مهزولًا، حقًّا، كأنه جائع حد الموت».

(4) في الأصل، جبل «كانديس» بالتبت، وهو أيضًا مزار مقدس لطوائف من القاصدين إليه، في المواسم.

(٤)

والآن، فقد حان الوقت أن نتكلم في حكاية أخرى، حكاية عن «لوقاو» و«ياوليان». ولا بد في البداية من توضيح نقطة مهمة، وهي أنه ليس من المؤكد حقًّا أن تكون هذه الشخصية حقيقية، ولا من الضروري أن يكون صاحبها قد ظل على مدى كل تلك السنوات بصحبة «لوقاو»، ولو أنه لم يكن هناك ما يمنع «ياوليان» من الذهاب للعمل في إقليم التبت.

بالضبط هكذا، يمكن الافتراض بأنه جاء إلى التبت.. كمواطن من قلب الصين أراد العمل تطوعيًّا لمساندة هذا الإقليم، فجاء من بلدته البعيدة إلى هنا، لفترة خدمة تمتد من ثلاث إلى خمس سنوات. لنتفق على هذا بشكل نهائي! وقد عرف القارئ أن «لوقاو» تم تكليفه بأعمال السكرتارية في إحدى اللجان المحلية بإقليم التبت، ومقر اللجنة يقع لِصق المكتب الخاص بلجنة الخطة الاقتصادية، وكم اقتضته ظروف العمل المرور على هذا المكتب المجاور لدواعٍ تتعلق باستيفاء بعض الأوراق، وهناك التقى فتاة على درجة كبيرة من الجمال، وهي من أهالي التبت على حد ما سمع، وساعة أن التقاها بمحض المصادفة فقد عرف أنها تعمل في أحد أقسام هذا المبنى الحكومي الكبير، الذي يضم عدة قطاعات مختلفة، منها طبعًا قطاع لجنة التخطيط، أما القطاع الذي تتبعه هذه البنت التبتية فلم يكن يعرف عنه شيئًا ولم يحاول حتى من باب الفضول أن يسأل ويستقصي؛ ربما بسبب خجله أو تهيبه وهذا مجرد تخمين من جانبي، على اعتبار أنه ليس من اللائق ولا المفهوم أن يأتي شاب حديث عهد بالعمل إلى المكاتب المجاورة فيظل يلف ويدور مستفسرًا عما يعد تفاصيل شخصية تتعلق بموظفة جميلة.

«لوقاو» شاب في الثلاثين من عمره، هيئته مبعثرة طوال الوقت، خصوصًا لحيته بمنظرها المشعث وشعراتها المتفرقة الشوهاء، مع أنه لو بذل أقل جهد في ضبط مظهره وتهذيب شعثه لبدا أجمل شاب في الدنيا؛ فهو طويل القامة، طوله يبلغ المتر والثمانين سنتيمترًا، وسوى ذلك فلست أجد داعيًا إلى التمعن في تفاصيل ملامحه، ثم إن الظنون قد تذهب

بالقارئ إلى حد التصور بأني مقدم على سرد قصة حب (السبب واضح؛ فثمة حسناء مليحة القد وفتى جميل المحيا، كما ترى!)وبناء عليه ذلك، فقد وجب أن أعلن هنا بكل وضوح أن: هذه ليست قصة حب، بأي حال!

اعتاد ياوليان أن يأتي لزيارة لوقاو في محل عمله، ولمحها ذات مرة، فانتبه إليها هو الآخر.

«عجبًا لهذه الفتاة! عجبًا لبشرتها شديدة البيضاء إلى هذه الدرجة! هل تعمل معكم هنا في اللجنة المحلية؟ هذه أول مرة أرى فيها فتاة بيضاء من أهل التبت، فالناس هنا يميل لونهم إلى السمرة غالبًا، انظر إلى أقراطها المدلاة من شحمتي أذنيها، هما قرطان من اليشب الأصلي.. كانت جدتي تقول إن القُرط المصنوع من اليشب الجيد أثمن من الذهب، وسمعتها تقول أيضًا..» إلى آخر الكلام الوارد على ذهنه من قول الجدة.

قُل إنه الحظ الذي يأتي بدون موعد، وحدث أنه جاء بغير مواعيد عندما تقرر عرض فيلم سينمائي في قاعة لجنة التخطيط، واتصل مدير اللجنة المحلية عدة مرات بزميله في المبنى المجاور، ليطلب منه عدة تذاكر لمشاهدة الفيلم، دون مجيب، فأرسل لوقاو في هذه المهمة، وبالصدفة البحتة كانت البنت في المكتب وقتها.

«سيادة المدير خرج حالًا، هل من خدمة؟».

«طيب.. أنا كنت قادمًا له من لجنة المحليات.. اللجنة المجاورة لكم بالضبط..».

«نعم، أنت الموظف الجديد، لا بد أنهم أرسلوك لأجل التذاكر .. اجلس قليلًا».

«هه؟ لا.. شكرًا، ألا أستطيع مقابلة المدير هنا..».

«من أين جئت؟ أقصد من أي بلد؟ يقولون إنك من إقليم «دونغبي»».

«أنا من «لياو نينغ». وأنتِ من هنا؟ «حضرتِك» من أهل التبت؟».

ضحكتها كانت رائقة وفاتنة وهي تومئ بالموافقة.

«لكنك تتكلمين لهجة الشماليين، مثلنا، بكل طلاقة».

«لأني عشت في بكين سبع سنوات، أثناء الدراسة.. تفضل، اجلس قليلًا».

هنالك وجد «لوقاو» الوقت المناسب ليتأمل أهدابها الطويلة المسحوبة في نعومة ساحرة وأنفها الصغير وبشرتها المشربة بحمرة خفيفة شابها ملمس رهيف من مسحوق البشرة، وقد التم شعرها فوق الرأس كباقة صغيرة معقودة بدبوس فضي لامع في ضِمامة الخُصل، بطريقة تبرز الأذن الصغيرة المنتهية شحمتها بقرطٍ من اليشب الأخضر. جميلة هي بحق، فمها صغير بشفتين رقيقتين، والعنق مستطيل في نحافة متسقة مع قوامها السّمهري.. نحيفة برشاقة، خاصة عندما كانت ترتدي الدثار الأرجواني الفاتح والبنطال (الجينز) الضيق، فتتبدّى ملامح قدّها الممشوق. كلامها قليل لكنه كالإيقاع نظيم، جزل المساق، له حلاوة ووقع لطيف في الأسماع، سَمِعَهَا وتلخبط كيانه، ثم إنه نظر إلى عينيها وأحسَّ أن في غور الأحداق دفائن كلمات، أحس أيضًا أن أحواله هذه الأيام ليست على طبيعتها، وأنه لم يكن يشعر فيما مضى بكل هذا القلق. وكان أنه أخذ منها التذاكر فاستأذن وخرج.

أحيانًا نقول إن فلانًا جميل.. جميل حقًّا، وأحيانًا أخرى نقول إن فلانًا هذا أجمل من ذلك الآخر (طبعًا بافتراض أن الآخر، هنا، محل تقدير باعتباره جميلًا أيضًا!) لكن مثل هذا القول يمكن أن يوقع الناس في الجدل الذي بلا نهاية؛ لأن لكل امرئ معياره في الجمال والذوق، فاذهب واسأل الناس رأيهم في كل من: «تشانغ يو» و«تشن تشونغ» و«ليو شياو تشينغ»(5) أيهن الأجمل؟ وستتضارب الآراء، بنفس وتيرة التضارب التي سيطرت على عقل ومشاعر لوقاو وهو يتأمل ملامح تلك الفتاة التبتية، لكنه لا يحتار في تقييم جمالها وإنما في استيعاب تأثيره المفرط.. فقد كان يراها أجمل الجميع، بمن فيهن الثلاثة المذكورات آنفًا مع أن ثلاثتهن ما زلن في ريعان العمر، ثم إنها أجمل حتى من ممثلات أخريات يصغرنها كثيرًا، مثل: «تسونغ شان» و«يين تينغرو» واليابانية «ما يومي» التي أبهرت الصينيين بسحر جمالها!

قال لنفسه، هن لا شيء بالنسبة إلى جمالها، بل ربما فاقتهن روعة لو قدِّر لها أن تعمل في التمثيل!

من جانبه اعتبر أن التعارف قد أخذ مجراه بينهما، خاصة عندما كاد أن يصطدم بها وهو ماشٍ في طريقه دون أن ينتبه لمرورها أمامه، فوقفت وضحكت بسخاء وافر، واحتار في تفسير الكلمات الغائرة في مقلتيها، تلك الساعة.. (ماذا قالت بنظراتها؟.. «آسفة لم أنتبه جيدًا!»، «أهلًا، أهو أنت؟ صباح الخير!») أدرك أن رد فعله كان يجب أن يكون مختلفًا عن انفعاله التلقائي (يقولون عنه الانعكاس الشرطي!) حين أومأ لها ضاحكًا بدوره، ومشى.

جاء ياوليان واقترح عليه أن يذهب معه لحضور مراسم جنازة شعبية.. جنازة دفن حسب العادات التبتية.. «طبعًا، من دون مناقشة». لوقاو لم يكن قد رأى هذه المراسم إلا في المجلات المصورة فقط. من خلال تحقيق مصور يقدم جانبًا من عادات أهل التبت في دفن ذويهم بمراسم «تيان زانغ» أي الدفن تحت رحاب السماء، ولها في نفوسهم وقع مهيب، باعتبارها طقسًا مقدسًا، من قديم؛ إذ يحمل المتوفّى على محفة يرفعها أهله، ثم يأتون بجثمانه إلى كاهن مختص بالدفن، يتناوله ويقطع أوصاله ويشعل فيها النار ويكون ذلك قبيل بزوغ الفجر، وساعة أن تشرق الشمس فوق حافة الجبل تكون الطيور الموكلة بروح الميت قد التقطتها وطارت بها إلى آفاق السماء، حيث تصعد الروح إلى معراج البعث الجليل وذلك لاعتقاد الأهالي في الحياة بعد الموت، دليلًا على قيمة الحياة في نظرهم، وعملية تقطيع جثمان الميت يشترط فيها أن تتم قبل شروق الشمس، وهو عندما رأى تلك الطقوس في تحقيق المجلة لم يلحظ تفاصيل عملية التقطيع هذه؛ لأن الصور لم توضحها بما فيه الكفاية، ولو أنها عرضت لقطات متفرقة لأحشاء المتوفى.. ومثلما يتوعّك طالب الطب أيامًا طويلة بعد التجربة الأولى في تشريح جثة فقد بقي لوقاو مدة يومين، بعد مشاهدة الصور، لا يقرب الطعام ويتقيأ فور تناول أي شيء، لكنه بعد يومين فقط عاد إلى طبيعته، وقال لنفسه إنه مثل كل الناس، من دم ولحم، وإن الموت واحد في آخر المطاف، بل ذهب به الأمر إلى حد التفكير فيما لو أجريت له مثل هذه الطقوس حال وفاته، مع عدم

اعتقاده في مسألة صعود الروح إلى السماء...إلخ، لكن الفكرة وقوة حضورها في الخيال مبهرة، ثم إن الطقوس العامرة بهذه الأخيلة راحت تأسره وتوقع به في غوايتها.

اتفقا على استئجار سيارة تنقلهما عبر الطريق الجبلي، حيث تقام الطقوس في منطقة نائية على مسافة خمسة كيلومترات من إحدى الضواحي المؤدية إلى موقع الدفن، تكلم لوقاو في هذا الموضوع مع زميله «شياوهي» سائق الوحدة المحلية، وتحمس هو الآخر لأنه لم يكن قد شاهد طقوس دفن تبتية في حياته، واعتبرها فرصة ثمينة قد لا يجود بها الزمان كثيرًا. وإذا بالمدير يكلِّف لوقاو بالذهاب في مهمة عمل عاجلة في هذا الوقت بالذات، مع أنه كان قد طلب إلى سيادته السماح له بالذهاب إلى العاصمة «لهاسا» في رحلة لمدة يومين اثنين.

اتفق مع صاحبه على الذهاب لحضور الجنازة صباح اليوم التالي بعد عودته من المشوار المهم الذي طرأ في آخر لحظة، ومن لحظة قيامه بالمهمة إلى يوم عودته منها قضى لوقاو أسبوعًا واحدًا ليس غير، بيد أن أمرًا قد وقع أثناء هذه الأيام السبعة، فقد ماتت الفتاة في حادث سيارة!

حادث سيارة مثل كل الحوادث التي تقع ليل نهار، عجلة قيادة اختلت في يد السائق السكران، قال له «شياوهي» إن وجهها كان مشوهًا تمامًا ومعالمها يصعب التعرف عليها.. وللعلم، فهي ابنة أحد الوجهاء الكبار في البلد، سليلة عائلة «بالان» حيث الأب، الوجيه الأمثل، شخصية لها وزنها وتاريخها الوطني المشرِّف. عاد من منفاه في النرويج مع زوجته في العام السابع والسبعين، في تلك الأثناء كانت هي قد تخرجت حالًا في بكين بعد سبع سنوات من الدراسة.

قررت لجنة التخطيط أن تقيم حفل تأبينها في اليوم التالي مباشرة.

في المساء جاء ياوليان، فقام من فوره وذهب معه قاصدًا إلى «شياوهي».

«هه؟ اتفقنا؟ أننطلق صباح الغد؟».

«طبعًا، الاتفاق كما هو».

«لكن هذا يقتضي الاستيقاظ مبكرًا جدًّا.. وأنت يا شياوهي، جهِّز العربة من الآن».

«الأفضل، إذن، أن أبيت عندك الليلة بدلًا من الذهاب ثم المجيء من باكر، والمشوار بعيد».

«تفضل، واعمل حسابك ألا تسهر كثيرًا».

«أبدًا، بل سأنام فورًا، فكم أود أن ألقي حالًا بجسدي المنهك».

«سأضبط لكما المنبِّه على الرابعة والنصف تمامًا، وآتي لإيقاظكما».

هطلت الأمطار، قبل أن يطرق النوم أجفانهما.. سقط المطر، والصيف في التبت فصل أمطار، نهاره وليله سواء، يسقط مدرارًا طوال الليل وفي الصباح يروق الجو تمامًا.

«البنت ماتت، أسمعت بالخبر؟».

«سمعت».

«كانت أجمل من رأيت».

«...».

«لو كان أي أحد آخر غيرها مات، لما فكرت».

«فكرت في ماذا؟».

«في أنه لم يكن ينبغي لها أن تموت، قد أتوقع الموت لأي إنسان آخر سواها، لم يكن لازمًا أن تموت.عرفت بالخبر في حينه، لم أحاول الذهاب إلى موقع الحادث فقد كرهت أن أراها

ميتة».

«ألهذه الدرجة؟».

«تظن أني أحببتها؟ أبدًا، هي فعلًا كانت جميلة، جمالها كان يباعد المشوار بيني وبين الناس. بيني وبين الجميع كانت المسافة تتسع، لأنها أصبحت شيئًا كالرمز، مثل الورد كانت، مثل النسور، البحار، جبال الجليد، مثل كل تلك الأشياء التي تنطوي على معنى في مهابة الروح. فتاةٌ حلوة تستطيع أكثر من أي شيء آخر أن تملأ سمعك وبصرك بالحياة، تغرس فيك معنى الوجود والإحساس بقيمته، قد تقول بأنه كلام تجريدي أو خيالي أكثر من المعقول، لكني كنت أشعر أحيانًا أن فتاة حلوة يمكن أن تدفع في شرايين البقاء نبضًا وحيوية وتجددًا..».

«نم! فلا بد من الاستيقاظ مبكرًا من غد».

«نسيت أنك عائد حالًا من مهمة مضنية، وأنك متعب».

أحس لوقاو لحظة انغلاق عينيه أن ياوليان عاود كلامه.

«هل نمت؟ أنا تذكرت أمرًا، حفل التأبين المقام غدًا ربما لن يشتمل على نظرة توديع أخيرة للفقيدة، ثم إنها من التبت، أي أنه من المتوقع أن نلحق غدًا بطقوس جنازتها.. هل سمعتني؟».

لدى عودته في اليوم التالي كان حفل التأبين قد انتهى، ولم يدرِ لوقاو إلا وهو مدفوع برغبة عارمة في الدخول إلى قاعة الحداد، حيث مُدَّ البساط الطويل وصُفَّت المقاعد بعناية ولم يكن في القاعة أحد من الحضور ساعة أن أطل لوقاو من المدخل ورأى صورتها المكبرة بابتسامتها الحلوة، على الحائط فوق المنصة.. في المنتصف تمامًا، بينما تدلّت لفائف المرثيات وسط طاقات الورد.

القاعة خشعت تحت جو من المهابة، ولوقاو فاضت مشاعره على الرغم منه بشجن عميق، وفي سمعه بقايا كلمات ياوليان التي قالها له وهو نعسان ليلة أمس. ثم إنه قام واقفًا واقترب من الصورة المعلقة.. لاحظ أنها مكبرة كثيرًا عن حجمها الطبيعي بنحو أربع وعشرين بوصة، كانت تنظر إليه بعين لامعة بالحياة وغاب عن ذهنه لوهلة أنها ماتت، ورغم تكبير النسب ظلت الصورة جيدة التكوين متسقة التوزيع بين مناطق الضوء والظلال، فتعزز الانطباع بتلقائية الملامح، واستطاع لوقاو أن يستعيد شكلها ولحظة الصدق في كلامها لما قابلها وتحاور معها في المرة الأولى، دقّق في ملامحها ولاحظ العنق المخملي النحيف وخطوط فمها المحددة بنعومة واتساق جانبي أنفها اللذين ظهرا أكبر قليلًا من القرطين النازلين من شحمتي أذنيها فلما عرَّج على مقلتيها الغائرتين رآهما محتشدتين بكلمات كثيرة، كعهده بهما عندما كان يطالع وجهها عن قرب، نقل نظراته إلى لوحة التأبين، عرف أنها تدعى «يانجين».. نفس الاسم الذي تحمله مئات الألوف من فتيات التبت.

هدَّه التعب، فكّر في العودة للاستحمام وغسل قدميه وتغيير ملابسه، قال إن أحسن شيء يفعله الآن هو أن يلقي بنفسه على السرير ويدخل تحت البطانية، بعد غسل رجليه بالماء الدافئ. في تاريخ الأيام كان اليوم الأحد.. يوم العطلة الرسمية.

(5) ثلاثتهن ممثلات سينمائيات، الأولى والثانية مثلتا في السينما الأمريكية، والثالثة نالت شهرتها على المستوى المحلي، داخل الصين.

(٥)

قلت لك حالًا إني لا أفكر في العودة إلى بلدتي، ليس لأني أريد الانتهاء من النص المسرحي الذي حدثتك عنه (فسأنتهي منه آجلًا أم عاجلًا) وإنما لأن هناك أسبابًا أخرى كثيرة، وعمومًا فقد فرحت بقدومكم إليَّ اليوم، وبهذه المناسبة أريد أن أحكي لكم شيئًا لم أقله من قبل عن أمر يخصني أنا شخصيًا، قصة تتعلق بي.. ولا يذهب تفكيركم إلى أنها قصة حب فليس عندي قصة حب تستحق أن تُحكى.

كم أحببت وأنا طفل الإنصات إلى الحكايات الخرافية، كل الأطفال تقريبًا على نفس الشاكلة، لكني لما كبرت تبدل الأمر، واعتبرت أنها فترة وانتهت من حياة الطفولة التي يجتهد الجميع في حشو آذانها بكل ما يمكن اختراعه من الحكايا. أقصد محاولة الكبار في ترضية النزق الطفولي بما قد أودعوه جعبة الأقاصيص، ثم جاء عليَّ وقت شغلت فيه بمطالعة الكتب والمقالات النقدية وعرفت من بعضها أن الحكايات الخرافية هذه، أو الأساطير الشعبية، تندرج في باب الأدب الشعبي وأن هناك آراء بحثية ترى أنها جزء من عملية إبداع تلقائي تراكم بفعل التجربة التاريخية الطويلة للشعب العامل، جاءت نتاجًا جانبيًا لمجهوده الجبار في عملية الإنتاج، بحيث صارت هذه الحكايات تعبيرًا عن تطلعاته إلى فهم تجربة الحياة وتلخيص أحكامه القيمية عليها، وتأصيل رؤاه فيما يتعلق بالخير والشر عبر المعايير الأخلاقية، التي تبلورت في أحكام المدح أو الذم.. الانتصار للخير ضد الشر. لكن الأسطورة وبالنسبة إلى من يعيشون مثلنا الآن في عصر العلم، أصبحت شيئًا من الماضي البعيد.

التِّبِتْ بهرت عيون كل القادمين إليها، سواء من مواطنينا الصينيين المنتقلين إليها من مناطق بعيدة، أو السائحين الوافدين من الخارج، بكل ما فيها من أعاجيب كانت تبدو كشيء خرافي لا يمكن أن تراه إلا في الأساطير: بمناظر المتعبدين الخاشعين في الطرقات أو الساجدين في جنبات الطريق، بقراء النصوص الدينية وتلاوتهم لها وسط حشود الناس..

بالمتصدقين على المعابد بالمال والطعام، بمنظر شارع «بارخور» ومعبد «جوخانغ» المتقاطع مع المركز التجاري والبضائع والباعة والأسواق.. بالنجارين والصناع المهرة الممسكين بأزاميلهم ينحتون الأشكال والرسوم على الخشب عند منحدر جبل «بوتالا»، بتماثيل الآلهة الملونة المنحوتة في قمم التلال الصخرية.. بالرؤوس الحليقة لشيوخ اللاما البوذيين، بثيران الـ«ياك» الممهَّدة ظهورها للامتطاء المريح الآمن رغم قرونها الطويلة المعوجة! التبت المليئة أركانها بالرايات الملونة المتطوحة في الهواء وقد نسخت فوقها النصوص المقدسة، بكل احتفالاتها وتقاليدها وأعيادها الغريبة: «عيد الاستحمام»، «عيد سباق الخيل»، إلى آخر كل تلك الأشياء التي ليس لها آخر! في الساحات يتحلق السائحون لالتقاط المناظر بوجوههم المبتسمة والعابسة والوقورة والتي لوحتها الشمس (لعلكم لا تختلفون عنهم في كثير أو قليل) والشيء المهم هنا هو أن كل هذا ليس غريبًا أو مبهرًا بالنسبة إلى منطقة التبت نفسها، فقد عاش الناس حياتهم فيها منذ آلاف السنين دون شعور بأن ما يدور حولهم يقع ضمن الأعاجيب. الأجانب فقط يرونها عجيبة لأن ما يرونه فيها يختلف تمامًا عن المألوف في حياتهم.. ما يرونه فيها يعتبر استعادة للأسطورة البعيدة، ابتعاث للحكاية الخرافية التي رويت على أسماعهم في الطفولة، يتطلعون إلى الأشياء في فضول ودهشة، لا يبدو عليهم أنهم استوعبوا وجه الاختلاف بسهولة، لكنهم يفرحون وتغمرهم السعادة، كأنهم بإزاء قلعة قديمة أنشئت على غرار قلاع القرون الوسطى داخل «ديزني لاند» لكن ليس في مقدور أي أحد أن يطالع تذكار الحكايا بعينين مفتوحتين.

قالوا إن الحكومة قررت إنشاء مدينة على الطراز الصيني القديم في مدينة «شيآن» [يقال لها مدينة «طانغ»، نسبة إلى أسرة الطانغ ٦١٨ - ٩٠٧م وكان زمن نهضة وعمران، في أوانه] بحيث تمتلئ شوارعها بالحانات والمقاهي التي يقوم بالخدمة فيها شبان يرتدون الزي التقليدي في عصر طانغ، وكل المباني والمحلات تقام على نفس الطراز، لا يشذ أحدها عن النمط، على اعتبار أنها فكرة ترمي إلى تأسيس منطقة سياحية مشجعة على اجتذاب الزوار ودفع حركة السياحة، مع ملاحظة أن المناطق المتاخمة لشيآن تحتل مكانها المتميز

في صدارة المواقع السياحية على مستوى البلد ككل، ما يعني أن إقامة مثل هذه المدينة الـ«طانغية» سيصب في مصلحة الدخل القومي، خصوصًا بالنقد الأجنبي، وبأرقام فلكية.

ثم إن مواطنينا ممن سيرتدون ملابس على طراز طانغ ويتجولون في مدينة تأسّس معمارها على نفس النمط، هم في واقع الأمر أبناء عصر حديث، مثلك ومثلي تمامًا، لكن الأمر هنا ومع أهالي التبت يختلف كليًا وجزئيًا، وأنا في هذه المسألة أستطيع أن أحكم حكمًا صادقًا فقد عشت هنا زمنًا طويلًا جدًا، وصحيح أني من الأساس لست من مواطني التبت، لكني أتحدث لهجتهم وآكل من طعامهم وأشرب مثلهم الشاي بالسويو، أي بالزبد وأمد يدي إلى الأطباق بقطع من الخبز المصنوع من الـ«تسانبا» وأحتسي خمر الـ«تشينكي» وتلفحني الشمس فتشيع السمرة في بشرتي مثل الجميع هنا، لكني برغم كل شيء غريب عن البلد وساكنيه، لا يعني هذا أني أحمل للناس هنا ضغينة، بالعكس تمامًا، فأنا أحبهم كما يحب المرء إخوانه الذي يعيشون معه في بيت واحد، وأنوي أن أبقى وسطهم مدى عمري كله، لا يفرقني عنهم ولا عن هذه البقعة من الأرض إلا الموت، أقسم على هذا! فكم ذهبت مع أصدقاء لي هنا إلى المعابد وأقمت طقوس الصلاة، كم من مرة قدمت أضحيات في الهياكل المقدسة، ولئن كنت حتى الآن لم أنبطح ساجدًا في ساحات المعابد، فلن أتأخر عن السجود مع الجميع لو تطلب الأمر هذا، فما الذي يدعو إلى القول بأني غريب حتى اللحظة؟ ربما لأني لم أستوعب تفاصيل وأسباب كثير من الظواهر التي أجدها حولي، في مختلف نواحي الحياة، ما زلت أجد صعوبة في فهم كثير من الأشياء هنا، حتى لو كنت أنظر إليها باعتبارها مجرد «شكل» خارجي أو مظهر للحياة يمكن التعامل معه على نحو أو آخر، وطبعًا فلا بد أن أقول لك إني أحترم هذه المظاهر والعادات الاجتماعية الخاصة بهم. وعلى هذا فأنا أحاول دائمًا تفسير ما يبدو غامضًا أو غريبًا، بطريقتي الخاصة، مستخدمًا ذلك المنطق اللعين الذي علمونا إياه بحيث يتم «استنباط النتائج» وتكوين الافتراضات، فهذا أقصى ما يمكن أن نفعله في سبيل الاقتراب منهم أو اقتحام تلك الحواجز الفاصلة بيننا وبينهم -أقصد بيننا وبين الناس هنا- لكن طبعًا مع الأخذ في الاعتبار أننا نعتبر أنفسنا

الأكثر تحضرًا وذكاء، مقابل نظرتنا إليهم على أنهم متخلفون أغبياء يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم وينتشلهم من الأحوال المتردية.

تستطيعون حضراتكم الذهاب إلى شارع «بارخور» قبيل الغروب، تقتحمون زحام الرائحين والغادين وتشقون صفوف المنشدين وقارئي النصوص الدينية، تتلفّتون يمينًا ويسارًا ثم تتجهون إلى قلب المدينة وأنتم ترتدون المعاطف التبتية المحلية.. الزي الشعبي للأهالي هنا، ومنكم من قد يفضل ارتداء الـ«كاساني» [الكساء!] أي جبة الرهبان البوذيين، وتمشون مثلهم، بخطى وئيدة كأنكم تسيرون وحدكم وسط خلاء مديد، ملء أفئدتكم صبر وإيمان عميق تتهادى خطاكم على طريق صاعد قدمًا، في جماعات شتى يمشي الواحد منكم فارغ البال، كمن أكل فشبع ولم يجد ما يفعله سوى أن يهيم على وجهه في الطرقات حتى يقع في خاطره أنه فقد اتجاه المسير، يتلفت حوله ويقول إنه لم يبلغ الموضع المقصود، فليس هذا هو المكان الذي يريد. تلك أشياء عايتنها بنفسي ووقعت لي في وقائع الأيام هنا.

أقام الأمريكيون محميات للهنود الحمر، فكانت أشبه بمتحف حي للتاريخ الثقافي، وهنا عند الهضبة التبتية التي هي سقف العالم، ثمة مشهد آخر لمتحف تاريخ ثقافي، ذلك أن مليونًا وثماني مئة ألف من أهلنا هنا ما زالوا -وقد أقبلوا على الاشتراكية وعلى زمن الحضارة العلمية- يعيشون في حدود عالمهم الروحاني، بنفس عاداتهم المحلية وطرائقهم الخاصة بهم، يستخدمون المياه النقية في بيوتهم (داخل المدينة) وينتعلون أحذية جلدية ويقودون السيارات، يسكرون من خمر «سيتشوان» ويرقصون على إيقاع موسيقى إلكترونية، ويتابعون عبر شاشة التلفزيون أحداث الصين والعالم، ساعة بساعة.

كل هذا يدعوني إلى القول بأن احترام العادات (المظاهر، مرة أخرى) لا يكفي، أقول هذا وأنا أحبهم وأحترمهم أيضًا، لكن لا بد من الفهم العميق لطبائعهم وأحوالهم؛ ولهذا فقد حاولت أن أطل على عالمهم الفريد. أتعرفون أنه فضلًا عن القول بأنهم يعيشون زمن الخرافات فإن تفاصيل حياتهم اليومية تعد جزءًا لا يتجزأ من عادات ومفاهيم أسطورية خالصة؟ فالأسطورة بالنسبة إليهم ليست حلية أو مجرد مظهر تكميلي وإنما هي الحياة

نفسها، هي أساس وعلة وجودهم وهذا هو ما يمنحهم خصوصية الانتماء؛ لذلك يصبحون «شعب التبت» وليس أي شعب آخر. أين أمريكا؟ ما الفرق بين شعبها وبين قوميات العالم الأخرى، باستثناء فارق الظروف المادية والبيئة الطبيعية؟ لا فرق بالطبع! (أرجو المعذرة على كل هذه السفسطة التي ملأت بها هذه الفقرة.. وتلك ملحوظة المؤلف، بقلمه!).

(ملحوظة أخرى للمؤلف: أعترف أنه لمن السخف أن يسعى الكاتب إلى تضمين نصه الروائي فقرات مطولة من حسراته، لكن وبما أن قدميه وقعتا في الزلل وانغرستا إلى القاع فسنكتفي بهذا الحد، مع وعد بعدم التكرار).

جاء الربيع وقررتُ الذهاب في رحلة إلى جبل «أليشان» لمدة شهر، سافرت مع فريق من الجيولوجيين في سيارتهم حتى بلغنا منطقة غير مأهولة في أقصى غرب التبت، ولحسن الحظ، اكتشفت بأنا نزلنا قريبًا من امتدادات سلسلة جبال «كانديس»، ومثلما اعتدت في الرحلات الخلوية فقد أسرعت مع باقي أعضاء الفريق إلى نصب الخيام، ثم قررت أن أذهب بمفردي في تجوال حر دون التقيد بخطتهم في العمل، وحملت على ظهري أدواتي: عدة للنوم وبوصلة ومكبر وبندقية صغيرة.

التضاريس الجبلية هنا في منتهى الوعورة فالأرض ممتدة عبر خلاء تكسوه الحشائش الجافة إلى أن تلتحم بسلسلة الجبل البعيد، والمدى صحراء شاسعة الأطراف تتخللها مستنقعات جافة. في اليوم الأول لم أصادف كائنا حيًّا ولا عثرت على أثر لإنسان، قلت لنفسي لو مرَّ اليوم التالي بنفس النتيجة فسأرجع من حيث جئت خاصة أن رصيدنا من المؤنة لا يتجاوز استهلاك أربعة أيام، ثم جاء اليوم الثاني كالأول تمامًا بلا أثر لشيء من الأحياء لكنني عثرت من حسن حظي على بحيرة صغيرة، حيث لم تبدد السماء كل رجائي، وأقبلت على الماء أنهل شيئًا منه فإذا هو سائغ للشراب، وكان المشي قد أنهك قواي والنهار مال للمغيب، فالتجأت إلى كهف صخري لدى سفح كثيف العشب، وقررت أن أمضي الليلة كيفما اتفق دون أن أوقد نارًا، لم يكن حولي سوى حشائش قليلة متفرقة وهو ما كان يعني أن أبقى طوال الليل ساهرًا كي أبقي جذوة اللهب مشتعلة بما تناثر هنا وهناك، ثم لم أجد

لهذا داعيًا، خاصة وأنا أحمل معي عدة للنوم من أصلح ما يكون للمبيت، فقد كانت غنيمة حرب حصل عليها صديق لي كان مشاركًا في معارك المقاومة ضد التدخل الأمريكي في كوريا، وأهداني إياها لمثل هذا الظرف، وهي عبارة عن أنبوب طويل مبطن بالحبوب الجافة، يدلف المرء بداخله ثم يغلقه بزمام منزلق.

طلع النهار دافئًا بشمسه الساطعة، فلما جاء الليل تراجعت الحرارة بشدة لتصل إلى ما دون العشرين تحت الصفر، فدخلت أنبوب النوم وأغلقت فتحاته بالزمام المحكم، بعد إغفاءة انتبهت إلى شيء ثقيل يضغط على الأنبوب من الخارج، فتحت الفوهة أستطلع الأمر فإذا ركام من الجليد يسقط على وجهي، إذن، فقد سقط الجليد أثناء تلك اللحظات وتكاثف فوقي، لمَّا أخرجت رأسي من الأنبوب وتطلعت حولي، هالني ما رأيت..

الأرض مغطاة ببساطٍ ثلجي حتى آخر المدى، الأشياء ظاهرة بوضوح رغم ظلمة الليل فقد صفا الجو بعد انقطاع الثلوج وراقت المناظر إلى حد الأفق البعيد، وثمة ما يشبه البخار الأبيض يتصاعد فوق سطح البحيرة القريبة كأنه أثر غليان فائر يتدافع في الأجواء التي غامت سماؤها وراء الليل، وغاب قمرها، وبدت نجومها دانية كعناقيد ملتمة وكثيفة، والبخار الأبيض يرتقي في معراجه أفق النجمات، يتلوى صاعدًا كأنه أحد تلك الأعمدة الدخانية التي تعمر بها الأساطير.. منظرها يجل عن الوصف، مرآها لا يخطر على بال، حتى كنت أنظر مشدوهًا لا أصدق ما أراه بعيني.. لا أصدق أن معراجًا من سديم أسطوري يطوي ما بين السماوات فيعانق النجم وراء أستار اللازورد، يعقد من سابحات تترقرق بجفن الليالي عقدًا نظيمًا، كل نجمة في مدارها معقودة بمسرى طيفٍ من دُخَان.

أقسم لك بما بقي من شعرات ضئيلة شاخت في رأسي.. بمشيبٍ يجلل عمري، أقسم بأني رأيت الدُّخَان يطلع من رأس البحيرة سالكًا دربًا صاعدًا إلى قلب السماء، وأني بقيت مكاني أتطلع إليه مشدوهًا ساعة من الزمان كأني طفل ساذج مأخوذ بروعة المشاهد، كطفل بقيت مكاني خائفًا من أن أتقدم خطوة إلى حافة البحيرة، خشية أن يكون ما أراه مجرد سراب

خادع.. يشتطّ به النأي كلما رُمتُ اقترابًا، وتبدده الخطى كلما دنوت، تطوّح به في خلاء لا يُدرَك مُنتهاه.

رجعتُ إلى عدة النوم فحشرت جسمي داخلها وأطللت برأسي متأملًا ألق النجمات، وغمرني النوم على هذا الحال، فانحدرت إلى سبات عميق بغير أحلام، إلى أن صحوت على صياح الإوز البري، عزمت حينئذٍ على مواصلة الرحلة إلى منتهاها، فقمت واقفًا، اصطدت إوزتين.

سرب آخر من الإوز كان يسبح عند حافة البحيرة التي يمور قلبها بثبج دافئ، يتقلب فوقه بخار أبيض يتلوّى صاعدًا في أجواز الفضاء. جعلت أرقبه وأدهش لما اعتراني من أحاسيس ساذجة ليلة أمس فقد تكشّف لي أن البخر ناتج عما فاضت به البحيرة من مياه جوفية دافئة، وهي تكثر بتلك المناطق من كتلة الهضبة، الممتدة بين «تشينهاي» و«التبت» على مدى مساحات شاسعة، ولو أنها منحتني، وسط هدأة الليل، شعورًا بأني مقيم بالجنة.. وقد صفا الجو وهدأ النسيم، أما وقد طلع الصبح فقد أشاعت الشمس دفئًا ملء الأصقاع، ذابت منه طبقات من ركام الثلوج، فما كاد ينتصف النهار حتى ذاب متسربًا قَطرةُ بين رمال الشاطئ وأعشابه.

بعد ظهيرة اليوم الرابع تمشّيت بالقرب من المستنقع، ظللت أمشي حتى بدا لي على البعد بروزٌ صخري على هيئة رأس الكبش، توقفت على مبعدة نحو ثلاث مئة مترٍ منه، واصلت المشي قريبًا من الأرض السبخة باحثًا عن درب يوصلني إلى النتوء الكائن عند أقرب نقطة من الحافة الصخرية، دون جدوى. فلم يكن ثمة مسار يؤدي إلى أقرب مكامنها.

مساء أول أمس، فقط، كنت قد عثرت عليه.. قرص الشمس المنحدر بطيئًا نحو خط الأفق البعيد، استدارته قاطعة في مشهد المغيب، رفعتُ المنظار المقرِّب وحاولت متابعة غروبه لكن الرؤية تعذرت بسبب تقاطع المدى مع تكوين صخري مرتفع أعاق النظر إلى الأفق.

تكوين صخري على هيئة رأس كبش انكسر قرناه، يبلغ طوله عشرين مترًا حسبما يمكن تقديره عبر المسافة البعيدة التي تفصلني عنه، ومن خلال المنظار المقرِّب تأكدت أنه تكوين صخري تآكلت حوافه واندثرت خطوطه التي كانت قاطعة وحادة، على مر الزمان.

أول الأمر، حسبته نحتًا مقدسًا تم نقله إلى هذا المكان.

لكنه احتمال بعيد، فمن غير المعقول أن يكون بقايا تمثال مقدس وإلا فلماذا يقام في هذه المنطقة بالذات، وعند حافة بحيرة؟ ثم إنه ضخم الحجم يكاد يزن آلاف الأطنان، وليس متصلًا بتلال صخرية حوله ولا يوجد في الموقع كله أي معالم صخرية بجوار البحيرة، وهو يقوم عند حافتها وربما كان جزء منه منغرسًا في الأعماق عدة مئات من الأمتار، هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فلم يحدث أن اتخذت المنحوتات الدينية رموزها من رؤوس الكباش، على مستوى شعوب العالم وقومياته سواء أكانت تماثيل متوسطة الحجم أم بهذه الضخامة غير العادية، ومن ناحية ثالثة، فقد استطعتُ عبر المنظار أن ألاحظ دقة النسب بين مختلف تكوينات هذا الرأس الصخري؛ فالمسافة بين أجزائه مضبوطة تمامًا بينما كانت منطقة ما بين الذقن وأول العنق غارقة في وحل المستنقع بمحاذاة البحيرة ومعلوم أن الآثار الشرقية وتماثيلها تحمل تصويرًا نابضًا بالحياة، مع طابع عام يهدف إلى التعبير عن المعنى مباشرة، أما آثار الفن الغربي الكلاسيكي فهي تجسيدية واقعية، لذلك، فربما كان هذا النحت الصخري أحد آثار الفن الغربي! ومن ناحية رابعة.. وخامسة، فهو بالتأكيد ليس نحتًا صخريًّا!

كانت تلك هي النتيجة التي تبعتها على الفور نتيجة أخرى.

فهذا، إذن، أحد كائنات ما قبل التاريخ، قُل إنه أحد تلك الديناصورات المنقرضة.. ديناصور بقرني كبش! الأمر المؤسف حقًّا هو أني لم أحضر معي كاميرا وإلا كنت سجلت ذلك الأثر الثمين، فكل من حدثتهم عنه لم يصدقوني، سواء من فريق الجيولوجيين أو غيرهم، يبدو أنها بداية أعراض المرض النفسي.. هلاووس بصري حاد، هذا تشخيص من عندي. أنا صاحب المرض.

كتبت إلى الجهات المسؤولة عن هذا الأثر وموقعه، ولا من مجيب.

لم أعد آخذ الأمر على محمل الجد وقلت إني سأعتبره مزحة أو حكاية من ضمن الحكايات التي تمتلئ بها الحياة، وقد بلغت نقطة النهاية، لكن ماذا عن «تشونبو»؟ أتراه قد وقع فريسة لمرض نفسي هو الآخر؟

(٦)

لم يكن هذا هو كل ما في الأمر. لم يكن هذا هو سبب دعوتهم لك أن تذهب إليهم على وجه السرعة، وأنتَ قمت على الفور وقصدت إلى الجبل، بصحبتهم، حيث أشاروا إلى كومة أحجار مبعثرة، ونظرت حيث قالوا لك: انظر!

نظرتَ ولم تجد إلا جيفة ساق حصان ممددة، بحافرها المستدير وبقايا الشعر الداكن اللون. قالوا لك هذا هو الحصان الذي حمله الدب ومضى ولما لم يستطع التهامه دفعة واحدة فقد دفن بقاياه تحت كومة الطوب، وعلّم مكان الدفن بهذه الساق المقطوعة ليتعرف عليها ثانية. قالوا إنهم عثروا عليها في الصباح الباكر، فلما عثروا عليها قصدوا إليك في الحال، قصدوا إليك بعد أن اعتبروك تميمة اتقاء الشر، آمنوا بأنك حامي أرواحهم من الأذى؛ لأجل هذا لاذوا بك معتقدين بأنك قادر على أن تدفع عنهم البلاء وتقتل الدبّ النحيل.

تعلم أنك قاتله. بالطبع تعلم أنك قادر على قتله، فأنت صائد دببة، لاتجيد شيئًا في الدنيا إلا قتلها، وهم أرادوا أن يعينوك باثنين من المسلحين بالبنادق لكنك صرفتهم؛ فلا حاجة إلى الكثرة في مواجهة دب واحد وإلا تعددت المخاطر والإصابات المحتملة، وقد صحت في ذاكرتك مأساة رفاقك الذين لاقوا حتفهم بين براثن سيد الجبل. بقيت وحدك، متخفيًا بالقرب من موضع ساق الحصان المقبورة، كنت تعرف أن الدب سيتشمم رائحة الذين احتشدوا هنالك حالًا، وسيحجم عن المجيء إلى حين، ولن يأتي إلا إذا نزل به الجوع ولم يعثر على فريسة، ساعتها -قد- يأتي إلى هنا ثانية.

لا تجرؤ على السجود وإلا أصبحت وجبة عامرة للدب.. وجبة جاهزة للتوصيل حتى الباب. كلامهم يتردد في أذنيك، مرة تلو المرة، وأنت لم تصدق أول القائلين، ثم جاءك آخر وقصّ على مسامعك نفس الكلام، بما يعتبر شهادة قاطعة على صحة ما قيل أول مرة، هل كان بإمكانك تكذيب الجميع؟

أحد الطرفين مخطئ بالتأكيد، أيكما المخطئ إذن، أنت أم كل الآخرين؟ أنت طبعًا تعتقد أنك على صواب، لكن أَمِن المعقول أن يكذب عليك كل هؤلاء؟ لا أعرف.. لا أعرف، «عندما أقتله لكم فلتجيئوا ولتنظروا معي جيدًا، وسنعرف إن كانت له كفٌّ بأصابع، ويدٌ مثل أيدي البشر». ثقتك كانت غامرة بأنك قاتله.

ران على الجميع صمت غريب. صيادٌ أنت، وحدك دومًا، انفرادك والصمت طبع يجري في دمك. الحق، أنك قد اعتدت أزل السكون، بيد أن الأمر مختلف هذه المرة وأنت أحسست أنه مختلف عما جرت به أوقاتك السالفة.

قمة الجبل كما العهد بها، جليدها ناصع الصفو، يزيغ منه بصرك. تتأمل فكرة أن تقتني كلبًا يرافق خطوك أينما حللت، فكّرت ولم تجد سببًا لعدم اقتناء جرو، أنت نفسك لا تجد سببًا مقنعًا لرفض فكرة الاقتناء من أساسها، خاصة أنك الصائد الوحيد في جبل «كانديس» الذي لا يقتني كلابًا. تفرّدك بهذا لا يقل عن تفردك بالجسارة وسط صيادي الدببة.

تنجلي الفكرة في خاطرك فجأة، فتدرك سرّ تلك الأشياء. تعرف أنه لم تعد هناك عقبان ولا صقور جارحة. فقط كانت هناك نسور رمادية تحوم على مهل كطائرات ورقية وسط صمت الأيام الخوالي، وسماء صافية.. سماء خالصة الزرقة لم تلمح منها الصفو إلا عندما شَرَعَت البواشق أجنحتها وامتلأت أجواؤُها بندف السحاب الأبيض، مفعمة النسائم.. كانت الطبيعة رفيق حياتك. أتظن حقًّا أنك بحاجة إلى اقتناء جِراءٍ تلهث وراء خطوك!

تذكرتَ أيضًا أن وقتًا طويلًا انقضى عليك دون أن تصادف أيًّا من صغار الحيوانات البرية، بينما المعتاد أن تمتلئ كل تلك النواحي بالأرانب والبواشق والغزلان المنغولية وأيائل النهر.. تمر بك من حين إلى حين، تتريث أمامك وتلقي عليك بالتحية، واثقة بأنك لن تؤذيها. تذكر ساعة أن أوقدت نارًا كثيفة لدى المخيم وجلست تنظف بندقيتك، ريثما كانت الثعالب الرمادية تمرّ بك، لمحتك بسلاحك المشرع فتوقفت مكانها، ظللتما معًا.. أنت وقطيعها العابر تتطلعان بعضكما إلى بعض بعيون فاحصة، حينئذ أدرَكْتَ أغوارها وقلت لنفسك إنها ليست

بهذا المكر والمخاتلة، وإن رائحتها ليست منتنة كما يشيع عنها الناس، نظرت عميقًا ولمحت في عيونها الطيبة رقة طبع ولين حاشية. ترى أين ذهب كل هؤلاء؟

تلك العقرب التي كادت أن تودي بحياتك، لحظة أن ألقى بك النعاس عند حافة صخرية ملساء، وأفقت على شيء ضئيل يحتكّ بأنفك، لما نظرت بطرف عينك وجدت ذنبها مشرعًا يكاد ينغرس في أرنبة الأنف، جمدت مكانك مكتوم الأنفاس، بل جبنت عن أن تفتح عينيك عن آخرهما، وهي لا تدري كم يكلفك مزاحها الثقيل لحظات قاسية لم تمرّ بها من قبل في حياتك، ثم إنك لم تجسر على البطش بها وقتئذ؛ لأنها كانت مثلك تمامًا متحفزة للرد ببطش مماثل، بأسرع مما تتخيل، بقيتَ ساكنًا أملًا في أن تبدأ هي خطوتها الأولى إلى الخلف! ولحظة أن تبدأ العقرب في التراجع، تكون قد هدأت وزال عنها توترها المفاجئ، فتستعيد حركتها العادية؛ تنبسط انقباضاتها ويتخدر إحساسها بالخطر. وأخيرًا جدًّا فقد تحركت بعيدًا عنك، وأسرعتَ تطيح بها بعيدًا بضربة من ظاهر كفك، فتدَحْرَجَتْ فوق الحصى وانقلبتْ على ظهرها، أخذَتْ تطوّح بأرجلها في الهواء وتجتهد في أن تعتدل مكانها، وقتها فكّرْتَ في أن تهرسها بكعب حذائك لكنك هززت رأسك مبتعدًا دون أن تدري ما الذي جعلك تعدل عن قرارك بسحقها.. والآن فهأنت تتذكرها فجأة، دون سبب معلوم. ربما كان الصمت قد أثار فيك مكامن القلق.. ربما!

هنالك عثرت على أساس المشكلة في كل هذا. أساس الموضوع هو أنه.. «لا يؤذي أحدًا من الناس». كل من صادفوه لا يزيدون على خمسة أشخاص، وجميعهم اتفقوا على أنه في غاية الشراسة مع أن أحدًا من هؤلاء الخمسة لم يلقَ منه أي أذى، لم يصبه أدنى خدش على يديه. تلك هي النقطة الحاسمة في الأمر! بالإضافة إلى نقطة مهمة أخرى، ضمن التفاصيل، فقد سبق له أن انتزع بندقية من حاملها وكسرها، وفي موقف آخر فقد هاجم أحدهم لأنه كان ممسكًا بعصاه، واختطف العصا منه فحطمها وطوح بها بعيدًا، في كل هذه الحوادث كان هو المبادر بالهجوم. إذن، فهل معنى هذا أنه يستطيع تمييز البنادق مثلًا، ويستطيع إدراك المغزى من حمل الهراوة، ويعرف أن ضربتها إما قاضية عليه وإما موجعة؟ إذن، فلماذا كان يبادر إلى تحطيم هذه الأدوات، حتى قبل أن تطاله بأذى؟

أنت أدرى الناس بالدببة. تعرف أنها مهما بلغت من الذكاء، فلا يمكن أن يكون نصيبها منه بهذا القدر، صحيح أنها تؤذي الناس وخصوصًا حاملي البنادق، لكن أبدًا لم يكن لمخالبها أن تتحول إلى كفوف بأصابع، كأصابع البشر، ولم يحدث أن رآها أحدٌ من قبل تجري بقامة منتصبة، وأطول الدببة جميعًا لم يبلغ مقدار ما ذكره شاهدو العيان، ولا يمكن تخيل أن أحدها يمكن أن يبلغ من النحافة قدر ما ذكروا. وأنت قلت في نفسك، لا بد أن في الأمر شيئًا مبهمًا.

من البداية تأكّدْتَ أنه لا يمكن أن يكون دبًّا.. لا، ليس دبًّا، فماذا عساه أن يكون إذن؟ الوحوش الكاسرة هنا إما دببة وإما نمور، ليس غير، وحتى النمور لا تكثر إلا في السفوح الجنوبية من جبل كانديس، حيث مناطق الغابات الكثيفة، ومع ذلك وحسب رواية الشهود فهو لم يكن نمرًا ولا دبًّا.

لم تعد تشغل بالك في التفكير فيما عساه أن يكون، وقلت إنك ستعرفه فور أن تقع عيناك عليه. انشغلت أفكارك بأبيك. كنت في الحادية عشرة يوم وفاته، يوم أن ورثت عنه رداءه، وصارت لك بندقية (كانت البندقية بيد أبيك تفزع قلوب السباع على مبعدة أميال في أرجاء الفلاة).

زوج من الوشق، ذكر وأنثاه، كانا قد افترسا ثلاثة من الأيائل، وشبعا فناما وسط كومة العشب الجافة يلعقان ما بقي على أجسادهما من دم الفرائس، أرسلتْ عليهما الشمس دفئًا ألقى النعاس على أجفانهما، صارت بطونهما المتخمة تتقلص بنبض أنفاسهما بين العشب وقد تماهى الفراء الرمادي في جسديهما مع لون العشب الذابل، جاء أبوك فأيقظهما بصيحته المفاجئة، ولا بد أن ذكر الوشق كان قد لمح ماسورة البندقية بلمعة منعكسة فوق معدنها تحت شمس الظهيرة فأحنى ساقيه الخلفيتين وتقدم ملامسًا الأرض بجسده، سرعان ما أدرك أبوك أنه يريد الهرب، وأسرع يبلل زر الإطلاق بما رشح بين أصابعه من العرق، في تلك اللحظة التي لم تتجاوز الثانية كان الوشق قد اختفى وراء العشب، وهذا هو أسوأ ما في الأمر! ثم إنه كمن هناك ولم يحاول الهجوم على الصياد اليقظ.

النتيجة معروفة من دون كلام! فقد قام الوشق بحركة التفاف سريعة، يحدد بها المواقع ويكسب وقتًا ليتدبر ما يمكن أن يفعله. طلقة الرصاص المدوية وصرخة أبيك اجتذبتا حتى قطعان الأيائل المنغولية القريبة من موقع الحادث. لم يحاول الوشق وأنثاه، وقد شبعا، أن يجرَّا جثة أبيك المطروحة في العراء.

مات في لحظة صلف نادرة، لحظة ثقة بالنفس، والمعتاد من الصيادين ألا يهاجموا ذكرًا وأنثاه ببندقية ذات ماسورة واحدة. أبوك كان شديد الثقة بشجاعته النادرة المثال، شديد الثقة بأن طلقاته لن تذهب سدى، كان يزهو بأنه قوي الجسد كالدببة، وكم اصطاد من أزواج النمور والوشق.. يقتل أحدها برصاصة، ويهجم على الثاني بمدية، ينازله بالسلاح الأبيض، وجهًا لوجه، وكثيرًا ما كان يقضي على الاثنين معًا، سوى تلك المرة التي هرب فيها الذكر بحياته. كان النزال يترك آثاره على الوجه وأجزاء متفرقة من الجسد، فيبلغ به الزهو مبلغه، إلى أن أورثه الصلف.

لا يغيب عن بالك أن أباك كان نافعًا، وأنك الآن تستطيع أن تصدق كلامهم، لأنهم لم يكونوا ليخدعوك بالقول. لقد استنجدوا بك لترفع عنهم البلاء، ومن ثم فلم يكونوا بحاجة إلى تلفيق كل تلك المبالغات لأي سبب، حتى لو كان بهدف المزاح معك وتزجية الوقت. «ما كان لي أن أصدقهم أبدًا، يا لغبائي!» كنت تلوم نفسك.

أدركتَ أنه ما كان ينبغي لك أن تأتي ببندقية، فأسرعت تخفيها بين شقوق الصخر، بعيدًا عن مكمنك. قلتَ إنه لا يبغي معاداة أحد، على ما يبدو من أمره، لكن لماذا يهاجم الدواب التي عليها معاش الناس؟ ليس هناك سوى تفسير واحد، وهو أنه لا يفهم العلاقة الضرورية بين الناس ودوابهم. ولئن كنت لا تفقه مسألة «السلسلة الغذائية» على النحو الذي يشرحها به علم الأحياء، فلعلك تعرف تمامًا أن الإنسان هو الوحيد بين الكائنات الذي يملك المراعي، والثيران والأبقار. لكنه لا يفهم تلك الأشياء وقيمتها. يباغت الدواب كأنه ينقض على سباع البر؛ لأنه يغتذي بها وعليها يعيش. لا فرق عنده بين بهيمة ووحش، ولا يدرك أن هذا هو

السبب في عداوة الناس، عداوة لم يكن يسعى إليها أصلًا، لكنه على الرغم منه قد خلق مبرراتها، بما أوقع من خسارة.

أصبت هذه المرة، فأنت ابن الصياد الذي ركبه الغرور، والغرور مقتلُه. صيّاد دببة أنت، وما عليك، فالأهم أنك.. إنسان. برجاحتك تملك زمام القوة، رابط الجأش تلزم السكينة وهو قادم ينبش أكوام الصخر، يستخرج بقايا الجواد، يمزقها أشلاء، يلتقهما ويزدرد، صرير أسنانه ينفذ في الأسماع.

كان المنظر واضحًا لعينيك، ساعة أن بان لك طوله الفارع، تمامًا مثلما ذكروا لك. نظرت ولاحظت نحافته، رغم قوته البدنية، وانحسار الشعر عن جسده، بينما لم يكن رأسه ضخمًا كالمعهود في رؤوس الدببة، ولا الفم رأيته بارزًا إلى الأمام. لكنك عجبت لأصابعه التي لم تختلف في شيء عن أصابع البشر. كان يلتهم بقايا الجيفة حينما رفع رأسه فجأة، وتطلع صوب مخبئك، فخرجت إليه على الفور، اقتربت منه متمهلًا بخطو وئيد، الشمس من ورائك كانت تسقط في الأفق شيئًا فشيئًا، وهو قبالتك، ينحسر وجهه وراء الظلال، وراء اللحظة الأخيرة من ضوء المغيب، إذ ألقت عليه شمس الغاربة خطًا مسلطًا من ألق تبدّت به هيئته التامة لناظريك، ثم انتهى كل شيء دفعة واحدة. لكن الوقت كان مواتيًا بالكاد لتلمح نظرته الفاحصة في وجهك. تراءى لعينيك وجه وملامح أنت تألفها، تعرفها تمام المعرفة، ليست غريبة عليك، ولا أنت عنها غريب.

انسلّ هاربًا لحظة أن قررت الذهاب إلى الشق الصخري لتجيء بالبندقية. ما أسرع خطوه وهو يجري، تمامًا مثلما قالوا جميعهم، جرى واختفى في لمحة عين، جرى بقامته المديدة، فهو أطول منك مرة ونصف المرة، لاحظت أنت ذلك وأيقنت أنه [هاء الغيبة هنا تعود على العاقل!].. إنسي، مثل كل الآدميين، رغم كثافة الشعر في جسمه، فهو إنسي بكل تأكيد. لم تُطلِع أحدًا على اكتشافك، ولم تقل شيئًا لأي واحد ممن قابلت، لكنك تذكرت صاحبك القادم مثلك من قلب الصين، وقد علق بذهنك مرأى رأسه الموشك على الصلع.

(٧)

عرفتم الآن أن تشيونبو قد التقى بالإنس الوحشي، وهو أحد الأجناس التي تسكن المناطق الجليدية من جبال الهيمالايا، وسوف تطالعون الكثير عنه في أبواب «الطُّرَف والنوادر» بالمجلات والصحف، فحكاياته تملأ الأسماع في كل مكان من الأرض، وتقريبًا فمعظم القراء في العالم طالعوا شيئًا من العجائب التي تدور حوله، وربما كان هناك من صدقوا بعضًا من تلك الحكايا التي تطرقت في كثير من الأحيان إلى ذكر أخبار عن العثور على آثار تؤكد وجوده.

حتى أن كثيرًا من دول العالم تخصص ميزانيات هائلة لإيفاد بعثات علمية استطلاعية للعثور على ذلك الإنسان الوحشي، حيًا أو ميتًا، دون جدوى، سوى النزر اليسير من الحفائر التي يمكن أن تحتوى على قليل مما يعد «دليلًا ماديًا» يشير إلى وجود هذا الكائن الخرافي. ثم إن الصين نفسها قد أقامت في منطقة «هوبي» مؤسسة لحفظ المرويات والآثار ذات الصلة بالإنسان الغابي الجليدي، وسمعنا أيضًا أنهم أنشؤوا هيئة علمية استطلاعية، بهدف التوصل إلى ما يمكن أن يفسر لغز ذلك الإنسان الوحشي في الصين.

الكشف عن أسرار هذا الكائن يعد ذا قيمة علمية كبرى، باعتبار ما يوفره من أدلة علمية تسمح بفك طلاسم النشأة الأولى للإنسان. والكائن الوحشي هذا يعد أحد الألغاز الأربعة الكبرى في العصر الحديث، وتشمل: مثلث «برمودا»، والطبق الفضائي الطائر، والإنسان الوحشي.. تُرى هل تعرفون اللغز الرابع؟

(٨)

جاء «شياوهي»، وأيقظ لوقاو، فقام ونظر في الساعة ووجدها الرابعة والنصف.

المطر في الخارج لا ينقطع، زخاته تتابعت دقات منتظمة. كان لوقاو قد ارتدى ملابسه وذهب لإيقاظ ياوليان الذي غمغم قليلًا.. «من؟ ماذا تريد؟.. ماذا؟» ثم نهض جالسًا.

«كم الساعة الآن؟ معقول.. سنلحق، الوقت مبكر، منذ زمان لم أستيقظ في مثل هذه الساعة، شيء مرير أن يقوم المرء مبكرًا هكذا، هه؟ متى استيقظت؟ اذهب وادعُ شياوهي أن يتحرك، هيا، لا يجب أن يبقى نائمًا حتى الآن».

لوقاو فتح الباب وخرج تحت المطر المدرار والسماء المغبشة ببقايا الظلمة، مما جعله يتحسس طريقه قبل أن يعتاد مرأى الأشياء. دق الباب وسمع صوت شياوهي وهو يفتح المزلاج من الداخل، عند البوابة كانت العربة الجيب مكانها.

«المطر غزير، يا لوقاو».

لم يردّ عليه، كان المفروض أن يفهم صعوبة الخروج في هذا الوقت، تحت الظلمة والناس نيام. أخيرًا خرج شياوهي بعد ارتداء ملابسه، وكان يزرر المعطف بينما دلف لوقاو إلى الداخل وأطفأ نور الحجرة.

كان شياوهي يسرع بالعربة وهو يقود خارجًا من قلب المدينة.

لم يسبق لثلاثتهم أن ذهبوا في جنازة دفن حسب العادات التبتية الريفية، وكل ما عرفوه أن جنازة اليوم ستقام لدى الجبل الغربي، قريبًا جدًا من المدرسة التي كان يعمل فيها ياوليان منذ سنوات، لذلك فقد أرشدهم صوب الطريق الرئيسي، مرورًا بالدرب الجبلي الضيق في اتجاه الشمال، والطريق مليء بالتعرجات والحفر الكثيرة مما حتّم تخفيض

السرعة، وبعد المرور بحذاء عدة منازل ريفية، تاهت معالم الدرب؛ ربما لأنهم أصبحوا قريبين من حافة المستنقعات الملحية التي تناثرت فيها كتل الأعشاب الجافة.

من جانبه فقد حاول ياوليان أن يرشد شياوهي عبر منعطفات الدرب، اعتمادًا على بصيص الضوء المتوافر من مصباح العربة.

«تمامًا... هذا هو الطريق الرئيسي، الزم السير أمامك محاذرًا فالطريق خرِب أصلًا وهناك بعض الحفر، بعد مسافة سنكون قد وصلنا والأفضل أن نسلك حذو الجبل لئلا نخبِط عشوائيًّا في الدروب الفرعية».

نعم هو الطريق الرئيسي، ومصباح السيارة كان يسلط ضوءه الأمامي على منحدر بالمواجهة، ولم يكن ممكنًا الدوران والرجوع إلى الوراء، فترجَّل ياوليان ماشيًا تحت المطر الساقط بغزارة، يستطلع اتجاه السير المناسب، ثم انعطف صاعدًا إلى تلة عالية ووقف مشدوهًا تحت زخات السيل بضع دقائق وعاد يلوِّح بيده أن لا سبيل للخروج من المأزق. فقد صرنا بمواجهة مجرى مائي جاف، ومن الصعب مواصلة الرحلة.

ما العمل؟ ربما كانت المسافة المتبقية قصيرة، إذن، فلنغادر العربة ونمشي، ولا بد أن ثمة جسرًا على المجرى الجبلي الجاف، جسر صغير يوصل إلى الجهة المقابلة، لا بأس، لكن كم يتبقى من الطريق؟ أما زال أمامنا مسافة أطول؟ إن المرء يكاد لا يسمع نأمة صوت من حوله، لم يبقَ على الشروق سوى ساعتين والمؤكد أن الطقوس قد بدأت الآن، لا يمكن أن تتأخر أكثر من هذا. ثم إن شياوهي لم يطمئن لفكرة أن يدع العربة هنا ويمضي.. الساعة قاربت الخامسة.

«الحل، أن نرجع إلى طريق المدينة، ثم ننعطف شمالًا ونتجه مرة أخرى إلى الغرب، فهذه هي الطريقة الوحيدة للالتفاف حول المجرى الجاف، والمسافة كلها تصل إلى عشرين ميلًا تقطعها عربة صغيرة كهذه في نحو ثلث الساعة، فما رأيكم؟».

وهل هناك حل آخر؟ عند أول الطريق الرئيسي لمحوا على ضوء مصباح العربة حشدًا من الناس يرتدون ملابس ملونة بالأحمر والأخضر، يمشون تحت وابل المطر.

«سائحون، من هونغ كونغ. في طريقهم لمشاهدة طقوس الجنازة أيضًا. انتظر، تعال نسألهم عن اتجاه الطريق؛ فهم بصحبة مرشدين».

ليس معهم مرشدون ولا أي شيء يتقون به المطر، عددهم لا يزيد على العشرة ويلبسون معاطف قطنية بللها المطر ومشكلتهم -مثلنا تمامًا- أنهم لم يجروا الاتصالات الضرورية بأهل المتوفى؛ للسماح لهم بحضور الطقوس، حيث يرفض الأهالي أن يتواجد الأجانب في جنازة ذويهم. كان سائحو هونغ كونغ يتقدمون على الطريق سيرًا على الأقدام مسافة تبلغ ما يقرب من أحد عشر ميلًا، هي مقدار ما بين المدينة وسفح الجبل، ولذلك فالمؤكد أنهم بدءوا الرحلة منذ ما يزيد على الساعة. المهم أننا عدنا بالسيارة إلى مشارف المدينة.

لوقاو أخذ ينظر إلى الساعة، بينما كان ياوليان يلعن الحظ المنكود.

كان المطر وساعات آخر الليل يجلبان معًا زمهرير البرد القاسي، لذلك سألهما شياوهي إن كانا يفضلان العودة لإحضار ملابس ثقيلة، ردّ لوقاو قائلًا لا داعي للمزيد من المتاعب.
وساعة أن كانت السيارة على مشارف المدينة في اتجاه مفترق الطرق لمح شياوهي على مقربة من مدخل المَفْرِق كومة داكنة اللون عند الرصيف، فأوقف السيارة قبالتها ونزل مع ياوليان ليفحصا تلك الكومة.

«أتراه سكيرًا غلبته الثمالة؟ أو ربما جثة عابر مسكين؟».

ارتعد شياوهي من ملاحظته الأخيرة التي قالها بنفسه وكاد يقف مكانه، لكن ياوليان كان يمضي قدمًا لا يعبأ بشيء، ثم إنه توقف عند تلك الكومة السوداء، قال.. انظر، هذا جوالق. لحق به شياوهي، وبقيا كلاهما عاجزين عن فك الرباط المحكم عند فوهة الجوالق، هنالك أخذ لوقاو يطلق نفير السيارة.

«هيا، الوقت يفوت بسرعة».

«حالًا، سنلحق قبل طلوع النهار».

انطلقت بهم السيارة ثانية وهم سكوت. اتجهت شمالًا، ثم استدارت ناحية الغرب حيث الطريق السريع المسفلت، والمطر بين غزارة وهدوء، يسقط على اللوح الزجاجي الأمامي بغير انقطاع، في الجهة المقابلة من الطريق كان ثمة جرار زراعي قد أطفأ أنواره، ريثما تتضح معالم الطريق لقائد العربة الجيب، وبعد قليل اضطروا إلى التباطؤ بسبب جرار آخر يتقدمهم في الاتجاه نفسه، يسوق على مهل ولا يتزحزح عن خط سيره، حتى عندما أطلق شياوهي النفير عدة مرات، ثم إن عرض الطريق لم يكن يسمح له بالميل جانبًا كي يعبر بالسيارة ويمضي في طريقه، بالتالي فقد اضطروا إلى تتبع الجرار، ثم كان لوقاو وياوليان قد انكمشا على نفسيهما في المقعد الخلفي، والنعاس يداعب أجفانهما، رغم البرودة المتزايدة، التي لم يستعدا لها بما يكفي من الملابس الثقيلة.

ناداهما شياوهي بصوت خفيض:

«انظرا إلى هذا المشهد الذي أمامنا..».

كان مصباح السيارة الجيب ينفذ بين خيوط المطر المنهمر فيتسلط على مقطورة الجرار، بمواجهة الجيب تمامًا، على ظهر المقطورة ثلاثة أشخاص متكئون على الحافة الحديدية وهم جالسون، وجوههم يغمرها الضوء المنبعث من المصباح وبدا أنهم يلفون عباءات حول أجسادهم بسبب البرودة، لكن وجوههم لم تكن واضحة تمامًا للجالس في العربة الجيب.

«انظروا، ألا يبدو على هؤلاء أنهم ذاهبون لحضور الجنازة؟».

«ربما، ولا بد أنهم يقاسون البرد الشديد في هذا العراء؟».

«تأملتهم طويلًا، الاثنان اللذان إلى اليمين، يتمايلان يمنة ويسرة مع اهتزاز المقطورة، لكن ذلك الجالس إلى جانبهم الأيسر لا يتحرك مطلقًا، منذ فترة وأن ألاحظ أنه متخشِّب، تأملاه جيدًا فأنا أظنه ميّتًا! منذ قليل نعستما، ولمحت المنظر وحدي فاقشعر جسمي خوفًا، لذلك أيقظتكما».

«لماذا تخيف نفسك بهذه الأشياء؟ لماذا تصوّر لنفسك أوهامًا كهذه في عرض الطريق؟».

كان لوقاو يفكر في تلك العبارة التي سمعها من ياوليان قبل أن ينام، أمعقول أن تكون أوصالها قد تقطعت حقًّا؟ وحتى لو كان هذا قد وقع لها، أيمكن له أن يتحقق بعينيه؟ كل شيء جائز. وهل كنت تتوقع لها منذ أسبوع مضى أن تموت؟ أشياء كثيرة يصعب على المرء أن يتوقعها، والآن، يتكلم شياوهي ويقول إنه يتوقع أن يكون هؤلاء الركاب على المقطورة التي أمامه ذاهبين لحضور الجنازة، ولم لا؟ وإلا فما الذي يدعوهم إلى الخروج تحت الليل والمطر؟ إيقاع الحياة في التبت بطيء جدًّا، والناس هنا لا يشعرون بأن ثمة ضرورة ملحَّة للخروج في هذا الجو الممطر، خصوصًا عندما يتعلّق الأمر بنقل البضائع على طريق موحل، ولو صحّ أن أولئك الناس ذاهبون لحضور جنازة، فلماذا لا تكون تلك جنازتها هي؟ خاصة وتوقيت الدفن يكاد يكون متقاربًا، تُرى لو تحقق أنها جنازتها، أيذهب لمشاهدة جثمانها المقطع الأوصال؟ حقًّا ما قاله ياوليان، فتاة حلوة، كانت حتى ساعات قريبة تمتلئ شبابًا وحيوية دافقة، تموت فتاة في ريعان الشباب، تتحول تحت سكين الأقدار المنثلمة الحد إلى أشلاء مبعثرة، أيمكن للمرء أن يتحمل وقع هذه الأحداث؟ جزء من تفكير لوقاو كان يقول إنها هي نفسها الشخص الثالث المنزوي في الركن الأيسر من المقطورة. قال أيضًا، لو صحّ هذا فسيحوّل عنها ناظريه.

ياوليان وشياوهي كانا يرقبان المقطورة، ويتفحصان المشهد بكل جوانبه.

«لنرقب حركة الجرار في الأمام، عند مروره بالمنحدر الجبلي، سيهبط أولًا وعندما يعاود الصعود ستبدو مقدمة الجرار وقد زحفت طالعة عند الجهة المقابلة، وتميل مؤخرة المقطورة إلى الوراء، عندئذ أسارع بإيقاف عربتنا، انظروا معي جيدًا».

«ها هو ينزل المنحدر، انتبه.. الآن يصعد ثانية، توقف بسرعة.. انتبه!».

الأنظار في كل اتجاه لم تهتدِ إلى موقع الجنازة وإن كانت التوقعات سديدة في معظمها، إذ اتجه الجرار إلى اليسار قليلًا ثم انعرج إلى درب ضيق يقود مباشرة إلى المكان المحدد، هنالك أحس شياوهي بالزهو لصحة تخميناته.

«ألم أقل لكما؟ قد تأكدت من اللحظة الأولى أن الجرار في طريقه إلى الجنازة، والمؤكد أيضًا كما لاحظت، أن الجالس إلى اليسار عبارة عن جثة ميت، بدليل أنها لم تتحرك طوال هذه المدة رغم البرد والمطر واهتزاز العربة».

«مستحيل، فالميت يتم تسجيته في صندوق ويُحمل فوق عربة حيث لا ضرورة لإقامته في الوضع جالسًا، وهل هناك ميت يمكن أن يثبت قاعدًا في مكانه؟ الموتى يتطوَّحون جانبًا ولا يمكن على الإطلاق أن يلبثوا مستقرين مكانهم خاصةً فوق طريق وعر ومقطورة متهالكة كادت تتحطم من شدة الاهتزاز».

«ربما تم تقييد الجثة بإحكام شديد؟».

«كيف يعني يتم التقييد بإحكام؟! أتظن أن أهل الميت يمكن أن يوافقوا على ربط فقيدهم بالحبال كيلا يتحرك من موضعه؟ ألا تعتقد بأن..».

كمتفرج محايد، كان لوقاو يتابع ما يجري بشغف، ومن الطبيعي أن يتجادل أصحاب وجهات النظر المتعارضة ويدافع كل واحدٍ عن رأيه بعناد يصل إلى حد المشاحنة، مع أن كل طرف منهم قد لا يكون بالضرورة مقتنعًا كل الاقتناع بما يريد أن يفحم به الجانب المناوئ، ثم إنهم جميعًا كانوا يتابعون المشهد مثله، سوى أنهم حاولوا تفسير ألغاز، وأي لغز في الدنيا لا تُحل طلاسمه إلا عبر احتمالين، ليس أكثر، وكل احتمال يصح معه الصواب والخطأ وبالتالي فلا يملك أي طرف الادعاء المطلق بالثقة فيما يراه، ومع ذلك فالتمسك بالرأي لا يعد في حد ذاته أمرًا سيئًا أبدًا؛ ذلك أن محاولة كل جبهة أن تعمل ذهنها وتعتصر

جهدها الفكري دعمًا لرجحان كفتها وإعلاء منطقها، يفيد في استجلاء الحقائق موضع اللجاج من زوايا متعددة، حتى وإن لم يملك أيٌّ من الفريقين القدرة على الإقناع. هذا، وكثيرًا ما تكون المواجهات الحدية بين طرفين متجادلين وسيلة للكشف عن كوامن الطاقة الحيوية التي تأخذ الناس بعيدًا عن أجواء الإحساس بالضعف. ومثلًا، فإن المشاحنة التي نحن بصددها استطاعت أن تنتزع كلًّا من شياوهي وياوليان من أجواء التذمر والشكاية من قسوة البرد.

تقدمت العربة صُعدًا إلى منحدر التل وهي تخوض غمار المستنقعات والبرك الضحلة المليئة بالحصى، إلى أن بلغ الجميع موضعًا أتاح لهم رؤية كومة مشتعلة تقع في منتصف المسافة إلى قمة الجبل، هنالك تنفسوا الصعداء، ولم يكن ثمة غيرهم وصل إلى الموقع ولا النهار طلع، لحسن الحظ طبعًا.

سوى أمرٍ واحد مزعج، وهو أنهم كانوا على موعد مع مقاساة أجواء ممطرة وباردة أثناء الجنازة، لا سيما وقد بقي المطر منهمرًا وليس على أجسادهم إلا ما يغشاها بالكاد من ملابس خفيفة.

(٩)

بترشيح من ياوليان، تولّى لوقاو قيادة هذا الفريق الصغير، بينما رضي هو نفسه بأن يكون نائبًا له، والفريق كله لم يكن يزيد على أربعة أشخاص لكلٍّ منهم دوره المسؤول عنه، تحت مسمّى محدد يمارس به اختصاصه، على أن يكون «تشيونبو» مرشدهم، في هذه المهمة الاستكشافية، ولا يبقى للعم المؤلف إلا دور استشاري وقت اللزوم. قبل التحرك حمل كل واحد بندقيته، فأمكن لثلاثة بنادق نصف آلية مع بندقية تشيونبو المخصصة للصيد أن يشكلوا جميعًا قوة نيران لا بأس بها، وحسب الخطة المعدة سلفًا فقد تحتم حمل كاميرتين وعدة أفلام للتصوير، مع كميات وافرة من أدوات الرحلة الخلوية، بما في ذلك علب الطعام المحفوظ.

قبل التحرك تشاوروا ثلاثتهم حول تصوراتهم للرحلة من زواياها المختلفة، سواء من ناحية التوقيت أو الزمن المستغرق وكيفية التصرف إذا ما اكتشفوا وجود الدب (وجوده؟) من حيث إطلاق النار عليه وتصويره والتصرف مع جيفته بعد قتله، والحفاظ على الأفلام الملتقطة ووضعها في العلب...إلخ. كل التصورات الممكنة تم استحضارها في أذهانهم قبل اللقاء الفعلي معه (هو مرة أخرى؟) ناقشوا كل احتمالات الخطر، وانشغل كل من لوقاو وياوليان بكتابة الخطابات العاجلة إلى ذويهما، بعد أن راجع الجميع مختلف أوجه الاستعداد.

بعد ثلاثة أيام كانوا قد نزلوا على البلدة المقيم بها تشيونبو، خاضوا غمار السفر إلى قريته الواقعة عند سفح التل حيث صادف الإنسان الوحشي. لم يتوانَ المضيف الكريم على أن يقيم لهم خيمة كبيرة فور علمه بما انعقد عليه الأمر من أن تكون القرية محطة الانطلاق الرئيسية إلى المغامرة الاستطلاعية، حيث تقرر أن يجوبوا مساحات هائلة من التلال والوديان القريبة على مدى أربعة أيام.

في تلك الأثناء كان اثنان من شباب المنطقة قد علموا بحكاية التعارف القديمة بين الكاتب الروائي وتشيونبو، ولفت انتباههم موضوع الإنسان الوحشي دون أن يكونوا قد رأوه رأي العين، لأسباب كثيرة، وكان أن قضوا مدة الأيام الأربعة في القرية، وفي الخامس عادوا أدراجهم دون أدنى شعور بالأسى؛ فذلك هو طبع «تشيونبو» وكل من هم على شاكلته من المقيمين في هذه الأصقاع، تلك هي أحوال كل «تشيانبا» [رجل] و«يانجين» [امرأة] هنا. أربعة أيام عاشوا فيها تجربة تكفي كل واحد منهم أن يكتب عنها ملء الدفاتر والمذكرات، حكايات تلو حكايات، بل إن ما كتبه العم الروائي واثنان من الأدباء الشبان من الشهادات الإبداعية ليذخر بفصول متنوعة من السرد المسهب حول تلك المنطقة، وقد أوشكت كتاباتهم على أن تصدر قريبًا جدًّا وتصبح في متناول القارئ. وفوق هذا كله فقد كتب لوقاو نصًّا مفعمًا بروح الواقع حول الأغاني والسير الشعبية. ورغم عدم ذكره حكاية الإنسان الوحشي والديناصور ذي القرنين فقد استطاعت قصته أن تصور ما تتمتع به منطقة تلال وسلاسل جبل كانديس من غواية وجاذبية وسحر.

القصة المذكورة وقعت أحداثها في القرية التي اتخذوها محط ترحال.

(١٠)

الحكاية أنهم كانوا متفائلين إلى أقصى حد.

والجرار لما وصل قريبًا من كومة النار، عند منتصف الطريق الطالع إلى قمة الجبل، توقف دون أن يبطل حركة الموتور، فبقي صوته هادرًا، والعربة الجيب من ورائه وعلى مسافة نحو ثلاثين مترًا كانت تقترب على مهل، حتى أمكن لركابها رؤية دائرة النار وثلة من الأشخاص يتحلقون حولها، هنالك استولت الحيرة على شياوهي، أيتقدم أم يبقى مكانه؟ فالباقي من الطريق وعر.

«لنتوقف هنا، فالهضبة العالية أمامنا، لا يمكن ارتقاؤها».

«ألعلك خائف؟ أيكون الجرار أجرأ من سيارتك الجيب الحديثة؟ فيم كل هذا الخوف؟».

«لا بأس، سأتقدم وألحق به..».

المرتفع وعر حقًّا، حتى كان شياوهي يضغط بكل طاقته على البنزين للصعود إلى الرابية.

بالمواجهة، جاء يجري عدد من الواقفين وهم يصيحون بالعربة وركابها، فضغط شياوهي بسرعة على الفرامل، نزل لوقاو فاستقبله أحد المهرولين، عمره قريب من الأربعين، يتكلم الصينية بوضوح، صاح في وجه لوقاو طالبًا «بطاقة الزيارة» وبدا أنه أحد أهالي التبت.. أحد أبناء الوطن. تحدّث إليه لوقاو بهدوء، مستفسرًا عما تكون «بطاقة الزيارة» هذه! انفجر الرجل غضبًا، وظل يصيح مطالبًا بـ«بطاقة الزيارة الصادرة عن الأمن العام الخاص بمناطق القوميات». انجلى الأمر بسرعة للوقاو؛ فالأهالي هنا يرفضون حضور الغرباء جنازة أقربائهم.. (كل الغرباء، أجانب كانوا أم وطنيين من مناطق أخرى) بهدوء حاول لوقاو إيضاح أنه لن يقترب أكثر من هذا، مكتفيًا بالمشاهدة من بعيد دون أن يشغلهم عما في

أيديهم من طقوس. هنا اشتد هياج الرجل وصخبه، وتحول لسانه إلى اللغة التبتية يصرخ بها في وجه لوقاو ما زاد الموقف تعقيدًا، فمثل هذه الرطانة التي لا تبعد كثيرًا عن أن تكون سبًّا مقذعًا ستحول دون التفاهم، بأي حال. أسرع لوقاو بركوب العربة وأمر شياوهي بالرجوع.

بعد أن ابتعدت العربة بما مقداره الميل وقفت، فنزلوا جميعًا ثم لحق بهم شياوهي وبينما هم يسيرون على غير هدى فوجئوا ببؤر ضوئية تتراقص على البعد، دققوا النظر فإذا هي كشافات جيب بيد خيالات من البشر، قال ياوليان إنهم السائحون القادمون من هونغ كونغ، فلبثوا ثلاثتهم حتى مرّ بهم هؤلاء، ومشوا في ركابهم، تجاه كومة النار في حَلْق الجبل.

«فلنمشِ معًا، في جمع واحد كثيف».

ملابسهم كانت مبللة بالمطر وقد بهتت ملامح عدد من نسائهم، تبدّت الوجوه خليطًا من البياض والزرقة، بيد أن الأمطار تضاءلت إلى حد أن صارت رذاذًا متقطعًا في ذلك الحين، ورغم هذا فقد عاد شياوهي يشتكي شدة البرودة، لوحظ أن الضيوف القادمين من هونغ كونغ يدركون بشكل أو بآخر استحالة السماح لهم بالتفرّج على طقوس الجنازة، فاتخذوا مسارًا بعيدًا عن المكان بحيث يدورون حوله في طريقهم طلوعًا إلى قمة الجبل، وهناك يمكنهم مراقبة الطقوس من علٍ، من زاوية عين الطائر. في إثرهم مشى لوقاو وصحبه.

اتسعت دوائر النهار، حلقة وراء أخرى والضوء آخذ في الازدياد دون أن ينقطع المطر، ومن قمة الجبل بدا جمع المتحلقين حول النار، بدا كأنه يقترب من اللهب مترددًا ثم لا يلبث حتى ينكص على عقبيه مخذولًا، ثم يقدم ثانية في عناد أثيم؛ ولأن الرؤية من هذا الارتفاع كانت تتحسن مع توغل النهار فقد اتضح بالكاد مرأى الأشياء حول اللهب الجنائزي. كان هناك جرار بمقطورة، والمتحلقون حول النار غير قليلين. عددهم فوق العشرة أفراد.

تقدم أحدهم فأطفأ جذوة اللهب، قام الجالسون منهم فأقبلوا على سطح المقطورة وكانت الساعة السادسة والنصف صباحًا، والمسافة من قمة الجبل إلى موقع الجنازة مقدارها أكثر

من المئتي متر، والمتلصصون يحاولون من مكانهم الخفي متابعة تفاصيل الأحداث حيث شوهد ثمة درج حجري مطروحًا بوضع أفقي على الأرض، غير بعيد عن كومة النار التي تم إطفاؤها حالًا، وبدا أنه الدرج الذي يسجَّى فوقه الجثمان، هناك في هذه المنطقة وليس عند قمة الجبل، كما حسبوا أول الأمر.

المسافة من قمة الجبل إلى الوهاد بعيدة، ما جعل من متابعة ما يدور من طقوس أمرًا بالغ العسر، بما في ذلك حركة الناس والأشياء. تُرى هل كانوا يرفعون الميت على اللوح الحجري، أم كانوا يقطعون أوصاله؟ حاول لوقاو أن يتخير مكانًا أقرب، وكذلك كل الواقفين حوله، فصار يتلوّى بين الصخور، وحشد المتفرجين يتصرفون على شاكلته، جميعهم تحركوا في وقت واحد، بمنتهى التناغم، هنالك تذكر ياوليان ذلك الشعور الذي كان يسيطر عليه وهو ذاهب في مناسبات مختلفة لحضور طقوس الدفن، حيث كانت الأفواه تلجم بالصمت، نفس الأفواه التي كانت في أحيان كثيرة، تتكتم الرغبة في الضحك والثرثرة. ما الذي يدفع الناس إلى التحول عن الكلام والتزام الصمت المهيب؟ أهو جلال الموت ورهبته؟ أبدًا، ليس الأمر على هذا النحو بل هناك ثمة سبب آخر. تخيّل مثلًا أن هناك خطًّا فاصلًا بين الحياة والموت، حدًّا فاصلًا لكنه هش جدًّا ومتميع وغائم، لكنه يصبح محسوسًا ومجسدًا في تلك اللحظة الرهيبة. وبالتأكيد تأتي اللحظة التي يستشعر فيها الناس وجود هذا الحد الفاصل، يستشعرونه بكل وضوح كما لو كانت إحدى أقدامهم عند ضفة الحياة والأخرى داخل تخوم الموت.. (هكذا، يعني، بتعبير بسيط، إذا جازت البساطة في هذه المناسبة) وتصبح الخطوة القادمة هي اجتياز الحد.

المثل السائر يقول: «لا حد للجشع، من أعطيته الشِّبر سيطلب القيراط!» ويُضرب لكل المعاني المتصلة بالجشع والنهم والطمع في مزيد اجتناء، فربما لو عَرَف حشد المتلصصين أن الاكتفاء بما حازوه من موقع لن يثير لهم المتاعب، لجنّبوا أنفسهم الشقاء. ثم إن تفاحة معطوبة بيد المرء أفضل من فقدان التفاح أصلًا! ومع وضوح ورجاحة هذا القول، شفاهة، فمن الصعب استيعابه عمليًّا، وتقريبًا فمعظم المشاكل تأتي من استخدام عقلية «الطمع في

القيراط، بعد الحصول على الشبر بالكاد!» وهو منطق لن يفطنوا إلى ويلاته إلا بعدما يتم طردهم شرّ طردة.

الكاهن الموكّل بالطقوس لاحظ أن ثمة من يراقبونه من فوقه فاستشاط غضبًا، وعلى الفور راح ثلاثة من مساعديه الذين يرتدون المآزر، يلوحون للمتلصّصين أعلى الجبل بالوعيد، ورغم تعذّر فهم الرطانة التبتية فقد كانت الرطانة الإنسانية المركوزة في طبع البشر كفيلة في حد ذاتها لتبيان أنهم يشتمون بأشنع الألفاظ، وبالتالي فقد أحجم المتلصصون عن التزاحم عند شق الصخرة للفرجة وتراجعوا قليلًا وهم يتابعون ما قد تصل إليه الأمور، ولو تبصَّروا قليلًا أو أوتوا شيئًا من النجابة لغادروا المكان في الحال ورجعوا عما هم فيه، لا سيما والمعلوم بحكم العادة أن الغضب المتأجج يخرج الناس عن أطوارهم ويلهب جمر العناد، فلا يعرف الصفح إلى النفوس سبيلًا، هنالك ينبغي على العاقل أن يفيق مما قد يزينه له الخيال الرائق. لكن القوم لجُّوا في غمراتهم، وتولّى عنهم الرشاد، فلبثوا في خيالاتهم سادرين في حلم، لا يفيقون.

لم تكن الشمس قد طلعت حينئذ، لأنه كان وقت أحلام.

تكالُبهم على الفرجة دفعهم إلى ارتياد مواقع أكثر إطلالًا على المشهد، فاشتد غيظ الكهنة القائمين على الدفن وأقارب الميت، الذين راحوا يقذفونهم بالطوب والحجارة، يرمون بها صوب أعلى الجبل على سبيل التهديد، ليس أكثر، دون أن يصيبوا أحدًا بأذى.

كان شياوهي أول المتراجعين، خوفًا، إذ انسحب إلى الوراء لائذًا بالصخور، ومن مكانه الجديد استطاع أن يرى العربة الجيب بوضوح لدى حافة المستنقعات الملحية، بينما استولى القلق على لوقاو، حتى أخذ يحث شياوهي على العودة بسرعة إلى العربة وتجهيزها للانطلاق.

صاروا كقطيع يطارد قطيعًا: الموكّلون بالطقوس تركوا ما بأيديهم وانشغلوا بمطاردة الغرباء، ساقوا وراءهم الخطى كأنهم يسوقون قطيع أغنام في مرعى، وأولئك أمامهم

يهرولون، بينما تأخر لوقاو وياوليان وأحد السائحين القادمين من هونغ كونغ، وكان قصيرًا ممتلئ الجسم، وإلى حدٍّ ما فقد تلكأ ياوليان كأنه لا يريد الابتعاد عن هذه البقعة، فكان يتوقف كل بضع خطوات ويتطلع وراءه إلى أن أصيبت ساقه بحجر.

حاول أن يكلّم مطارده ويناقشه بحكمة بالرغم من سيل السباب باللغة التبتية، وقد حمي وطيس الغضب ساعة أن انحنى الساخط يلتقط الحصى لرميه، عندئذ أسرع سائحو هونغ كونغ بالهرب إلى أسفل التل، يرمحون رمحًا، اكتفى اثنان من الكهنة بهرب مشاكسيهم فتوقفا وعادا أدراجهما، سوى كبيرهم الذي أصرّ على مطاردة حشد الفارين (هذا الذي أصاب ياوليان في ساقه بالحجارة).

المنحدر كان زلق الدروب، قد أوغل الطين في جنباته فتعثرت أقدام المنسحبين، في حين كان لوقاو يرتعش من شدة البرد وقد ابتل معطفه بالمطر، من ورائه أقبل ياوليان.

تباطأت خطوات الكهنة فاتسعت المسافة الفاصلة بين الفريقين ولحق ياوليان بلوقاو فلكزه قائلًا: «هل نرجع هكذا، بكل سهولة؟».

توقف واستدار فرأى الكاهن منتصبًا بقامته المديدة، عند التل.

عاد الكاهن يسبهم ويهدد بمطاردتهم، عندما لاحظ أنهم باقون مكانهم، وانفعل ياوليان فأخذ يدق الأرض بقدمه ويصيح بأعلى صوته..

«إذا ما حاولت تهديدنا مرة أخرى فسوف تندم، لأني لن أراعي أي أصول؟».

وأخيرًا أجابه الطرف الآخر بالصينية الفصحى..

«اعمل ما بدا لك، سترى كيف يكون الرد».

التقط حجرًا فرماه به، كاد رأسه ينصدع لولا أن تفادى الضربة، ثم إنه انحنى سريعًا ليجمع كمية من الطوب والحجارة بينما الرجل يزعق عاليًا، هذه المرة بلغة التبت، ومن بعيد كان

القائمون على الدفن قد قاموا واقفين وبدءوا في التحرك صوب شيوخهم المتشاحنين مع الغرباء. صار لوقاو يجذب ياوليان بذراعه، يستحثه على المضي بعيدًا بكل سرعة تجاه شياوهي الجالس إلى مقعد القيادة جاهزًا للمغادرة، وبالفعل فقد تحرك بالعربة.

كانا يهرولان، هو ولوقاو، مع محاولة مستميته في تجنب الطوب الذي كان ينهال عليهما، وإذ أدركا موضع السائحين اكتشفا أن رجال الطقوس كانوا يقصدونهما هما بالتحديد، دون الباقين، حتى مواطني هونغ كونغ. لم يتوقف الرجال عن مطاردتهما ولو بخطوات تباطأت كثيرًا عن ذي قبل، فتمهلا في جريهما.

«فلننتهِ من هذا الأمر اتقاء مزيد من المتاعب».

«لكنهم أغضبوني جدًّا».

«ونحن لا نستطيع أن نتمادى في إغضابهم».

«أنا فقط ألوِّح بالتهديد، على سبيل التخويف، ليس أكثر.».

«لا تنسَ أن المنطقة تتبع الحكم الذاتي للقوميات».

«قد لازمنا اليوم أسوأ نحس يمكن أن نصادفه في حياتنا، وكان المفروض أن نتخير مكانًا بعيدًا في الجبل، نتابع منه طقوس الدفن؛ فالمتابعة ولو من غير وضوح أفضل من لا شيء».

«لا داعي إلى السرعة، قد توقفوا عن مطاردتنا، فلا تحاول استثارتهم».

أن يفسد لديك التفاح أفضل كثيرًا من ألا تجده أصلًا.

أحقًّا؟ هذا الكلام لم يكن يصدقه لوقاو، وعمومًا فكم قال ياوليان كلامًا كثيرًا طواه الزمن والنسيان، بيد أن الشيء الذي لم يكن يقدر لوقاو على الوصول فيه إلى نتيجة قاطعة، هو

ما إذا كان الجسد الثالث الذي رآه على المقطورة هو جثمانها المسجّى؟ بالطبع كان لوقاو يعرف تمامًا أن حفل التأبين سيقام اليوم، وبالتالي فيمكنه أن يسألهم هناك عندما يعود، عما إذا كانت طقوس الدفن قد أقيمت كالمعتاد حسب التقاليد المحلية عند منحدر التل صباح اليوم. هو الآن لا يستطيع التيقن من شيء، ويتمنى لو استطاع الوصول إلى اليقين القاطع. ثم إنه اكتشف مع الوقت مدى تلهّفه على متابعة طقوس الدفن تلك، طقوس دفنها هي بالذات. الآن فقط اشتدت به تلك اللهفة، أكثر مما كان يشعر به وهو قادم إلى هنا بالعربة أول الأمر؛ خاصةً أنه لن يراها ثانية أبدًا.

طلع النهار، وإن بقيت قطع السحاب الداكن تبسط رداءً ضبابيًا فوق الأجواء ورذاذ أمطار متفرقة كانت تتناثر بين حين وآخر، ووجه ياوليان يمتقع، يشحب مصفرًّا كوجوه الموتى، ولوقاو يقول لنفسه إنه لا بد قد أصبح شاحب الوجه مثل صاحبه؛ فقد مرت عليهما ساعات صعبة في الخلاء وابتلّت ملابسهما عن آخرها بالمطر فسَرَت الرعشة في جسديهما، واصطكّت الأسنان، وغير بعيد جلس شياوهي إلى مقعد القيادة بانتظارهما فلما وصلا وركبا واستقرًّا في المقاعد، بقيت الرعشة تلازمهما، وقد انغرست القشعريرة في الأوصال. كان ياوليان متذمرًا بينما تساءل شياوهي..

«أنرجع؟».

أسرع ياوليان يستحثه على الانطلاق فورًا، والعودة من حيث جاءوا.

انتبه لوقاو إلى صوتٍ يلاحقهم، استدار فإذا بأحد الكهنة يشير إلى العربة وهو يعدو وراءهم مناديًا إياهم بالتوقف، وبالفعل فقد طلب لوقاو التريث قليلًا. فتوقفوا وصار الشيخ يحث الخطى ليلحق بهم بينما كان يلوح بيده ويردد كلامًا غير مفهوم، عندئذ نصح لهم ياوليان بالانطلاق سريعًا وتجاهل هذا القادم المجهول.. «فربما قذفنا بشيء أو أفسد السيارة وأوقعنا في مشكلة». تردد لوقاو ظنًّا منه أن الرجل ربما يريد أن يبلغهم بشيء مهم حقًّا أو لعله يطلب منهم أن يوصلوه إلى بعض الطريق، سوى أن ياوليان كان يستحثهم على الإسراع بكل وسيلة وعدم التوقف مهما كانت الأسباب، حتى لو كان المطلوب مجرد

التوصيل إلى أقرب طريق، تفاديًا لمغامرة غير مأمونة العاقبة (.. ماذا لو فوجئنا بسيل من الحجارة ينهال على العربة؟) هنالك اقترح لوقاو أن يترجل من العربة ويرى ما الذي يمكن عمله، لكن ياوليان أصر على عدم التوقف مهما كان السبب.. (ماذا تريدون من قوم أفسدتم عليهم طقوسهم، واقتحمتم مقدساتهم وعاداتهم الأصيلة؟ لن تجدوا سوى الموت على أيديهم!).

كانت العربة قد بلغت الطريق الرئيسي، ووراءها ما زال كاهن طقوس الدفن يهرول وهو يلوِّح بيده، وعلى الطريق فقد انطلقت العجلات بأقصى سرعة، دون أن يلتفت أيٌّ من الركاب وراءه.

عند هذا الحد تنتهي القصة وتنتهي معها أول تجربة لكلٍّ من لوقاو وياوليان في رحلة ضمن النشاط الذي قام به فريق الاستكشاف الميداني. ولما كانت ثمة سنوات ستجمع بينهما في العمل معًا، فقد اتسعت آفاق المستقبل لأيام إثر أيام من القصص والحكايات، منها مثلًا ما قد عرفناه من قيامهما بمغامرة لاستطلاع أحوال الإنسان الوحشي، وكلتا الرحلتين انتهتا دون أن تثمرا شيئًا ذا قيمة.

وقد نما إلى علمنا أنهما عقب الرحلة الثانية، المشار إليها آنفًا، قد كتب كلٌّ منهما روايته عن جبل «كانديس» وذلك طبعًا بعد انقضاء سنوات عديدة من القيام بتلك المغامرة العجيبة. وفوق ذلك فقد كتب لوقاو حكاية واقعية جدًّا عن مبدعي الفنون والسير الشعبية، وقبل الوقوف على وقائعها، فلننظر سريعًا إلى ذلك الحدث العرضي الذي وقع بالصدفة عقب مغادرة المنحدر الجبلي المخصص لإقامة الطقوس الجنائزية الخلوية.

«كنت في ذلك الوقت مجندًا في الجيش، أعمل سائقًا في قطاع مركبات الوحدة التي تم توزيعي عليها، وذات مرة تعطلت الفرامل أثناء قيادتي للعربة، ضغطت على الفرامل دون جدوى، وإذا بالمركبة تصدم صبيًّا صدمة عنيفة كادت أن تهرسه، في الحال انقض عليَّ والد الصبي وأنزلني من العربة فجذب رأسي وكاد يحطمه ضربًا، كنت وقتها في الثامنة عشرة

من عمري، نحيف الجسم قصير القامة، ومن هول الواقعة ارتعدت فرائصي وكدت أموت هلعًا.

صادف ذلك عودة قائد الوحدة، ونظرتُ فإذا هو قادم في المواجهة، تطلعت إليه مستغيثًا راجيًا تخليصي من الورطة التي أنا فيها، وكان سيادته بالمناسبة من أبناء نفس الإقليم الذي جئت منه، وقد اعتدت منه معاملة طيبة طوال الوقت، وكثيرًا ما كان يحنو عليّ ويعدُّني كأخيه الأصغر، وبالمناسبة أيضًا فقد كان الأهالي هنا، في إقليم التبت، ينظرون إلى قادة وضباط جيش التحرير نظرة إجلال، لكن قائد الوحدة لم يقل شيئًا يدفع به عنّي تلك المحنة، غير أنه تقدم بخطى ثابتة حتى صار أمامي وعندئذ تراجع والد الصبي وقد فك إسار قبضته حول عنقي..

«..مهما شطح بي الخيال وقتها، فما كنت لأتوقع أبدًا أن يتقدم مني سيادته فيرفع يده عاليًا ويصفعني بكل قوة.. صفعة شديدة أطاحت بي، أخلّت توازني وأطارت عقلي من رأسي. رأيته وقتها بوجه لم آلفه، وجه قاسٍ منذر بالويل على نقيض ما كنت أعهد فيه من رقة طبع. وكان أن جاء زميل آخر وقاد العربة وبقيت أنا والقائد إلى أن وصلت قوات الشرطة وتم تحويلي إلى التحقيق في قسم الأمن العام».

كان شياوهي يخفّض رأسه متفحصًا لوحة العدادات.

«يا للمصيبة، لم يعد لدينا نقطة وقود!».

«ألا تستطيع أن تتحرك بالعربة على أي نحو، ولو لبضعة أمتار؟».

«مستحيل، فقد نفد الوقود تمامًا، هي غلطتي لأني نسيت بالأمس أن أراقب عداد البنزين، على أية حال فهناك منشأة حكومية أمامنا بالضبط، سأطرق بابها وأحاول أن أقترض بعض الوقود، لو أمكن».

كان المبنى لأحد المصانع القائمة عند أطراف المدينة.

«ماذا لو لحق بنا الآن أحد الرجال الذين كانوا يطاردوننا منذ قليل.. ستكون كارثة».

«ألا نجد موقف سيارات قريبًا من هنا؟».

عند بوابة المصنع وقف الحارس مشيرًا إلى محطة بنزين قريبة، وأسرع شياوهي بإغلاق أبواب العربة ومشينا ثلاثتنا صوب المحطة، نقترض وقودًا.

ياوليان، في تلك الأثناء، وبتأثير البرد والجوع، كان مأخوذًا بطيف خيالات حلوة، صورت له وليمة ذات أطباق حساء ساخنة.

وكأن السماء تلبي حتى الأخيلة في رؤوس الحالمين! فقد وجد لوقاو، في وجه الرجل الذي خرج حالًا من حجرته بجانب الطريق، معالم ضيافة عامرة بأطباق حساء ساخنة، والمضيف هو نفسه الشخص الذي جاء مع لوقاو إلى التبت في يومٍ واحد، راكبًا نفس العربة معه في طريقه لاستلام عمله، مساعدًا لكبير المهندسين في هذا البلد، وذلك بعد تخرجه مباشرة في الجامعة، وبكل الترحاب والود فقد استقبل زميله القديم لوقاو وصار يسأله عن الأحوال، بينما الثلاثة الباقون يستدفئون حول الموقد الكهربي، ثم قام ووضع الحساء فوق النار ريثما يسري الدفء في الأوصال التي تخشبت من الصقيع، بل إنه ذهب واقترض من الجيران زجاجة خمر «بايجيو» وفتح عددًا من علب الطعام المحفوظ وهيأ لهم الأطباق، واعتذر شياوهي عن الشرب متعللًا بأنه لا يستطيع القيادة وهو سكران، فأقبل المضيف على لوقاو وياوليان، يشرب معهما غير كأس، وفي آخر المطاف قام الرجل واقفًا وقصد إلى أحد معارفه من السائقين ليجلب منه بعض الوقود الذي يكفي الوصول من هنا إلى أطراف المدينة، وهي مسافة تقدر بنحو عشرة أميال.

كان الرجل واقفًا يلوح لهم مودعًا، والمسرّة عالقة بالصدور دفئًا في حنايا الروح، رغم البرد وبقايا بلل المطر. كانوا يخرجون بالعربة من فناء الكراج، ومن مكانه في المقعد الخلفي رأى ياوليان حشد السائحين الجنوبيين، من مواطني هونغ كونغ، الذين كانوا في طريقهم لحضور طقوس الدفن التبتية، رآهم قادمين في اتجاه السيارة.

«هي فرصة أن نسألهم إن كانوا قد شاهدوا الطقوس كاملة».

«بل فرصة أن نستفسر منهم عما كان يريده الكاهن اللاهث في إثرنا».

لهجة أهل هونغ كونغ عصية الفهم (ربما كانوا يتكلمون اللهجة الكانتونية، أي لهجة أهل كانتون الجنوبيين) ولو أن ملامحهم الناطقة بالأسى أبلغ تعبيرًا عن فشلهم في مجرد الاقتراب من منصة الدفن. ها هو الرجل القصير الربعة يعترض طريق السيارة ويشير تجاه فتاة منكمشة على نفسها من البرد، لعله يريد من شياوهي توصيلها إلى المدينة. وبالفعل فقد صَعَدتْ إلى العربة وجَلَسَتْ في الصف الخلفي، بينما كانت عينا ياوليان تتابعانها وتلحظان دقة ساقيها اللتين كانتا من نحافتهما أشبه بأمعاء دجاجة، بدا عليها أنها حقًّا تكاد تتجمد من شدة البرد، وهنا فربما كانت أحوالهم بعد الضيافة الكريمة والراحة لبعض الوقت أفضل كثيرًا من مواطني هونغ كونغ هؤلاء.

أشارت إلى رفاقها بالتحية، بينما راح ياوليان يستحث شياوهي أن يواصل حكايته.

«هه؟ وماذا حدث بعد ذلك؟».

«حدث بعد ذلك، أن أهل الولد لحقوا بي في مقر الأمن العام.. أبوه وأمه لقيتهما أمامي في مبنى الأمن العام، وعرفت أن الولد مات وأنهما بعد موته جاءا مسرعين إلى حيث كنت محتجزًا للتحقيق».

«يا للأسف!».

«المهم أن أم الصبي راحت تسأل عن ضابط الشرطة وقائد الوحدة».

«صارت تقول لهما.. «أطلقا سراحه.. قد مات ابني فأطلقا سراحه، دعوه يمضي إلى أهله»».

«مسكينة.. كانت تبكي وهي تستعطفهم وترجوهم أن يخلوا سبيلي».

«.. أتوسل إليكم، اتركوه يمضي فما حدث كان دون إرادة منه، هو لم يكن يقصد قتل ابني، لم يكن يقصد، دعوه وشأنه..».

«في الأخير، فقد خرجتُ لكنهم سحبوا رخصة القيادة مدة خمسة أشهر، وبعد ذلك جاء قائد الوحدة وقال لي، بيني وبينه، إن هؤلاء هم أهل التبت.. بنفوسهم الطيبة التي لا تضمر سوءًا؛ لأنهم مؤمنون أتقياء، يرتلون الأدعية في طوايا نفوسهم.. والمرأة بروحها الصافية كانت ترجوهم قائلة:.. «يكفي موت واحد، لا داعي إلى أن يموت آخر معه». كانت تخشى أن يحكموا بإعدامي، نفسًا بنفس».

لم يتركها شياوهي حتى أوصلها إلى الفندق الذي تنزل فيه، فلما نزلت من السيارة حاولت أن تشكره بلهجة الشماليين، لكن لسانها كان يخذلها وهي تقول.. «شكرًا لكم جميعًا».

ياوليان عاد هو الأخر إلى مسكنه، وقد أقرّ بأن المصائر حتمٌ مريرٌ مرارة العلقم.

لم يبقَ في العربة سوى لوقاو وشياوهي، وحدهما.

«كان يجب عليك أن تهِب نفسك ابنًا لتلك المرأة التي شفعت لك، مدى حياتك».

«هذا ما فعلته بالضبط».

(١١)

وإليك حكاية عن الأخوين «دونشو» و«دونيو»، قيل إن الأهالي هنا اعتادوا مشاهدة فصولها ضمن عروض مسرحية شعبية. وللعلم، فهذان من أعذب الألقاب وقعًا على الآذان، بيد أن القصة نفسها قديمة، وأن تقول قديمة معناه أن تتصور الرجوع بتاريخها إلى زمن سحيق، يسبق عمر أي واحد من العجائز أو الكهول الباقين على قيد الحياة، ولعل الناس قد ظلوا يتوارثونها جيلًا بعد جيل، على مرّ الزمان، فهي من ميراث حكايا أجداد الأجداد.

عن نفسي فلست متأكدًا من أن الناس يمكن أن تتناسخ أرواحهم، مع ذلك فثمة توأمان يقال لهما أيضًا: «دونشو» و«دونيو»، مع ملاحظة أن أيًّا منهما لم يكن له أن يصبح ملكًا في يوم من الأيام فتلك أشياء تقررها مشيئة الأقدار. دونشو، راعي أغنام، أما أخوه التوأم فيعمل سائقًا، ويصغره بساعة واحدة.

أخوان توأمان، ليسا ككل التوائم؛ فقد كانا أكثر من مجرد أخوين متشابهين تمام التشابه، بل كانا على قالب واحد. صورة على غرار قالبها، أو قالب ومثاله دون أدنى تباين.

الكبير، الذي هو دونشو -وبحق كان اسمًا على مسمّى، فهو أخ كبير كما ينبغي للأخ الأكبر أن يكون- جسده ضخم ووجهه برُنزي اللون ورأسه عظيم، كأنه منحوت من حجر صوان؛ في حين كان دونيو ضئيل الجسم ذابل العود، على النقيض من أخيه، قد بلغ من قصر قامته أن رأسه كان يبلغ بالكاد قاعدة عنق التوأم الأكبر.

في أول أمره كان دونيو راعي أغنام كأخيه، مع ميل إلى النشاط والمرح، حتى أغنامه كانت أكثر حيوية، اعتاد لفترة ارتداء قبعة حمراء طوال الوقت، فكان الناس يعرفونه عن بعد وهو عند منحدر التل يقود قطعانه التي بدت وهي بعيدة مثل يرقات تتلوى. يرقات متباينة الألوان، لدى سفح الجبل الغربي، بأحجاره الضخمة ومروجه المتناثرة التي تباعدت فيها رؤوس أشجار الصفصاف. وثمة درب واحد ليس غير، تطرقه الأغنام ووراءها دونيو

بدأبه المعتاد مع ضعف بنيته، لكن خفة حركته كانت تتوازن مع كثير من أوجه النقص، بالإضافة إلى موهبته في الغناء. كم كان حلو الصوت وهو يشدو!

كان أن قصد دونيو إلى أخيه الأكبر، ذات يوم، ليفضي إليه بموضوعٍ شغل تفكيره.

«أريد التطوع في الجيش».

«أقلتَ لأمك؟».

«لكن، هل تظن..».

كانا يستلقيان قريبًا من خيمة منصوبة، بمحاذاة سور حظيرة الأغنام، تحتهما أرض مليئة بالعشب البارد. وكان أن دونيو استوى قاعدًا.

«هل تظن بأنها.. ستوافق؟».

لم يكن يكترث لرد أخيه، وبدا كمن يحدث نفسه.

«لا، لا أظن أن أمي ستسمح لي بالذهاب، بالتأكيد لن توافق».

قالها بلهجة الواثق، ثم لكز أخاه قائلًا.. «هه؟ قُل شيئًا!».

«أيًّا ما كان الأمر، فلا بد أن تجلس مع أمك وتكلمها».

«هي لن توافق، هذا ما أعرفه تمامًا، لن توافق، لكني لا بد أن أذهب، لا بد أن أسافر يومًا إلى تلك البلاد.. «شيآن»، «تشنغدو»، لا بد أن أنزل «بكين»، «شنغهاي»، أريد أن أرى البحر بعيني».

«أمك يجب أن تعرف».

«أريد أن أتعلم حرفة جديدة، أريد أن أتعلم قيادة السيارات، تلك أمنيتي منذ زمان منذ الطفولة، لو قدت سيارة لذهبت إلى أي مكان فوق الأرض، إلى «شيغاتسي» أو «النهر الأسود« أو «لهاسا» و«شانان» وربما إلى «تشانغدو» وطبعًا فأول مكان لا بد أن أدور به كله هو جبل «أليشان» أي منطقتنا هذه من شرقها إلى غربها».

«إذن، فمتى تنوي أن تحدثها في هذا الموضوع؟».

«.. انظر، سأقود السيارة في الليل وأسلط ضوء المصابيح على الغزلان الجبلية، كنت وأنا في التاسعة من عمري أجلس بجوار العم «قوا» رئيس فريق الإنتاج وهو يقود السيارة.. آه، كم كنت أبتهج لهذا. أذكر وقتها عندما كنا نقود بالقرب من المروج الجنوبية، وصادفنا على الطريق عددًا من الغزلان، كانوا أكثر من عشرة تقريبًا وعندما تسلّط نور المصباح عليها أرهفت آذانها ومدت أعناقها ببالغ الرقة والرشاقة، لما اقتربنا منها فرت مسرعة في طريق مستقيم، لا تحيد يمينًا أو يسارًا، وقال المعلم «قوا» إنها تجري باستقامة شعاع نور العربة ولا تحاول الانحراف إلى المكامن المعتمة وإلا هلكت، واستطعنا في تلك الليلة أن نحاصر خمسة منها، آه، ياللروعة!».

«غدًا، اذهب لأمك وتكلم معها، على مهل..».

«سآتي وآخذك معي في العربة ولن تكون بحاجة إلى أن تحمل الحطب، سأوصلك إلى الغابة الغربية كي تقطع ما شئت من جذوع الشجر فنحملها ونعود بها، طبعًا لن نستغرق وقتًا في الذهاب والإياب، مع أني كنت أرى منطقة الغابة الغربية وأنا على قمة الجبل فتبدو ضبابية وبعيدة جدًّا، عند حافة الأفق، كنت أراها كتلة معتمة بغير حدود، ألمح على البعد مياه بحيرة «شنهو» تلمع تحت ضوء النهار، نعم، أقسم لك أني رأيت الغابة من هذا الارتفاع، رأيتها وهالني منظر الأشجار الكثيفة المتشابكة، فانظر عندما يكون معي سيارة سأوصلك إلى هناك، لك وقتئذ أن تحمل أجولة من الحطب وتعود بها معي دون مشقة، سنأتي بكمية كبيرة منها تكفي أمي فصل الشتاء كله ولا تعود أنت بحاجة إلى أن ترهق

نفسك بحملها بين حين وآخر، ولا تحتاج أيضًا إلى أن تعاني مشقة حمل روث الأبقار، فتأمل معي، أليس هذا شيئًا مريحًا يجلب السعادة إلى قلبك؟».

«كل ما تقوله رائع لكن أهم شيء أن تتكلم مع أمك، وعلى مهل، دون أن تسبب لها القلق أو الضيق».

«أتعرف؟ سآخذ البنت «نيمو» معي في السيارة، لأن أباها سيكون قد وافق على زواجي بها، هه؟ أما عرَفْتَ أنه قد وعد بتزويجها شابًّا يجيد قيادة سيارة؟ وهي قالت إن أباها لا يخلف وعده، فهل تظن ذلك؟ البنت تحبني لكن المشكلة أنها تنصت بملء أذنيها لما يقوله أبوها، لذلك فلا مفر من أن أتعلم قيادة السيارات بأي طريقة، فزواجي بها مرهون بهذا الشرط».

«أنت تعرف أن أمك تحب نيمو جدًّا، فتكلم معها عن موضوع سفرك وترحالك، لن تمانع بل على العكس ستسعد لما يفرحك، لكن المهم وأنت تكلمها أن تنتبه بشدة إلى..».

«من مزايا قيادة العربة أيضًا أني أستطيع حمل الحطب إلى بيت عائلة «نيمو» وسيفرح أهلها لذلك وبخاصة الوالد، ولو أني -وأقول لك بصراحة، من أعماق قلبي- سأكون مضطرًّا إلى ذلك، إرضاءً للبنت فقط وليس لأي أحد آخر، ليس لأجل أبيها فأنا لا أحبه، أتعرف هذا؟ لا أحبه ومع ذلك فليس أمامي إلا أن أرضيه وأحمل إليه أكداس الحطب فقط لأجل نيمو، لأجل مسرة قلبها، ولا أقبل لنفسي أن أفعل شيئًا يضيرها، فما لي رغبة سوى بهجتها».

«قل لي كيف ستعرض الأمر على أمك؟ فهي تحبك، وتحب صوتك الشادي بالغناء، وستفتقدك إذ تسافر ويبقى فؤادها معلقًا بك».

«بالعربة أستطيع أن أتجول في كل الأنحاء، وأشاهد كثيرًا من عروض الرقص والغناء، أتذكُر وقت أن جاءت إلى بلدتنا فرقة الفنون الشعبية؟ أتَذْكُر وقت أن بقيت أتنقل وراءها في القرى على مدى ثلاث مئة كيلومتر لمدة أسبوع دون انقطاع؟ ظللت أتبعها أينما ذهبت، لأن الأيام السبعة لم تشبع نهمي لكل تلك الرقصات الجميلة، ثم عرفت أن الفرقة تتخذ

مقرها في العاصمة «لهاسا»، عند أحد أطراف جبل «كانديس»، قلت لنفسي إني أستطيع أن أنتهز فرصة سفري ذات يوم إلى هناك فأذهب وأشاهد عروض الغناء والرقص مرة ثانية، أقود السيارة ذاهبًا بسرعة إلى حيث تقام الحفلات الحلوة وأستمتع بالفرجة عليها أينما عرضت، وقد سمعت أن «لهاسا» تمتلئ بهذه الفرق الفنية، بالإضافة إلى مجموعات الفنون التبتية وفرق الموسيقى الشعبية والمسرحيات بكل أنواعها، فأتنقل من هذه إلى تلك، لا أدع عرضًا أو فقرة إلا واستمتعت بها. اسمع، سآخذك معي أنت أيضًا، أصطحبك معي لتشاهد كل تلك الحفلات، مارأيك؟ هه؟ إذا لم تكن تحب هذه العروض كما قد قلت لي سابقًا، فسأدعوك لمشاهدة أفلام السينما في «لهاسا» حيث تعرض الأفلام يوميًّا. هكذا قالوا لي، يوميًّا يعرضون أفلام السينما، الأفلام التي تحبها من كل قلبك».

«دونيو، أنت تعرف أني لا أحب الغناء ولا أجيده، على العكس من أمي التي عشقت الغناء وهي في أول الصبا، صحيح أنها لم تعد تغني لكبر سنها الآن، لكنها ما زالت تصغي بكل حواسها للغناء».

«أتعرف ياأخي أن الشيء الوحيد الذي أندم عليه هو أني لم أكمل دراستي الإعدادية، والأسوأ أني نسيت ما تعلمته فيها من خرائط العالم وقاراته ومدنه الكبيرة، وإلا كنت عرفت الآن أين تقع كل تلك الأماكن التي أحلم بزيارتها، آه، ليتني استفدت جيدًا مما درسته، لكني نسيت كل شيء، فلا أكاد أذكر من بين أسماء المدن الكبيرة إلا «تشنغدو» و«شيآن»، «بكين»، «شنغهاي» وطبعًا لا يمكن أن أغفل مدينة «كيرمو» أما ما دون ذلك من البلاد فقد ضاعت من ذاكرتي. كم أتوق إلى مشاهدة البحار الكبرى، تُرى كيف تبدو للعين؟ سمعت أحدهم يقول إنها أكبر حتى من البحيرة المقدسة «مانا ساروفار» بل أكبر من منطقة السهول الكبرى، وإنك تتطلع إليها فلا ترى الشاطئ الآخر وتبحر فيها قوارب حديدية كبرى تعمل بالماكينات وتبلغ من ضخامتها أن الماشي يظل يتنقل فوقها طوال النهار فلا يصل إلى آخرها، ليتني أرى بعيني رأسي البحر الواسع. أما تحلم بأن تراه أنت الآخر؟».

«طبعًا أحلم بأن أراه، لكن ماذا عن أمك؟ سيبقى قلبها منشغلًا بك؟».

«وأنا أيضًا سأشتاق إليها».

«ستبكي لفراقك، ولن تفرغ عيناها من الدموع».

«أعرف هذا». قال دونيو.. «مفهوم طبعًا».

فيما هما يتحدثان، جاء كلبهما وأقعى مندسًا بين جسديهما وتكوّر على نفسه في هدوء ولياقة العاقل الحصيف الذي يعرف كيف يصمت حين يتكلم الكبار، بيد أن الكبار لما رأوه قد انحشر وسطهما هكذا فقد صمتا فجأة، وللغرابة، ربما لأنهما استشعرا حرجًا من الحديث بمحضر طرف غير أصيل في الموضوع، أقحم نفسه عليهما دون انتظار أو لأنهما أفرغا كل ما بجعبتيهما من كلام حتى لم يعد ثمة ما يقال. وهكذا فقد توقف دونيو عن الاسترسال في تطلعاته وأحلامه، ومن جانبه فقد أحجم دونشيو هو الآخر عن ملاحقة أخيه بالسؤال عن الوقت الذي قرره لمفاتحة والدتهما في أمر سفره، فضلًا عن كيفية الدخول في مناقشة هذا الموضوع معها. كانت النجوم فوقهما تزاول بطيئًا عن مواضعها، والأردية التبتية المصنوعة من جلد الضأن تلمع خفيفًا تحت قطرات الندى، لم يكن أي منهما يحمل ساعة في جيبه أو في يده، لكنهما أدركا بحسهما المعتاد أنها أول ساعات الفجر.

كان دونيو منفعلًا تلك الليلة، بطريقة بدت مغايرة لطبيعته؛ فهو كأخيه الأكبر لا يميل إلى الثرثرة بحكم العادة، سوى أنه يعشق أغاني الرعاة، وما أعذب صوته شاديًا بها، حين يروق له الغناء.

ذات ليلة أخرى، وَفَد إلى القرية فريق العرض السينمائي، وتقاطر الأهالي على ساحة العرض، كان الجالس على مقربة من سور حظيرة الماشية، هذه المرة، الشاب دونيو وإلى جانبه فتاته نيمو، لمّا كانت الليلة باردة، منكمشة نجومها في كنف أقمارها، فقد أطبق الصمت على الولد وحبيبته، ولو أنه في الحق لم يكن بطبعه كثير الكلام.

نادرًا ما كانت البنت نيمو تخرج من بيتها في المساء، بسبب تشدد الوالد في مسألة خروج الفتيات ليلًا، لكنه لم يكن ليمنعها من مشاهدة العروض السينمائية في ساحة القرية؛ فهو نفسه كان يتوق إلى مشاهدة الأفلام كلما سنحت له الفرصة، فمن هنا استطاعت التملص من قيده الصارم، وخرجت، راحت لتقعد بجوار دونيو الذي كان قد اتخذ قراره بالسفر، بعد يومين اثنين.

خلع معطفه العسكري ووضعه فوق كتفي نيمو، بعد أن نفذت البرودة إلى عظامها، صارت ترتجف بشدة، حتى بعد أن أحاطها دونيو بذراعيه وضمها إلى صدره، وكان أن انتهى العرض مبكرًا جدًّا على غير العادة، سوى أن دونشو وأمه لم يرجعا إلى البيت بعد انتهاء العرض إلا بفترة طويلة، في تلك الأثناء كان دونيو قد دلف إلى الخيمة مع فتاته، وجاء بالزيت لكي يشعل الموقد، لكن نيمو أزاحت الشعلة من يده واحتضنته فانطفأت النار، وسرى الظلام في أنحاء الخيمة، مع السكون الذي ران على كل شيء.

لا شك أن توقعات القراء ستكون في محلها، إذا ما تصوروا أن دونيو سيحقق أمله المنشود، ويدخل في سلك الجندية، سائقًا في إحدى الكتائب. وبالطبع، فقد كانت تحدوه آمال كبيرة، وهو ذاهب في طريقه رافعًا عقيرته بالغناء.

(١٢)

ملء المراعي هنا وهناك، على مبعدة مئات الأميال، حكايات وقصص أشبه بالأساطير، حول المدعو «دونشو»، الراعي طيب الذكر، ذي القلب النقي، الذي كاد يتحول إلى أسطورة.

الأهالي في كل هذه البقاع يعرفون تمام المعرفة أن الأرملة المسكينة «تشوجن» لقيت هي وولدها الأكبر دونشو ألوانًا من الشقاء لكي يدخل الصغير دونيو المدرسة ويتعلم ويصير ذا شأن، ثم ها هو قد كبر وصار فعلًا ذا شأن عندما ترقّى إلى رتبة ضابط عظيم قائدًا لإحدى الكتائب في الجيش، لم يذهب كدح الأرملة سُدى، خاصةً أنها أصبحت تتلقى كل شهرين من ولدها البار حوالة مالية تكفيها عيشًا كريمًا وسط أهل القرية التي شاع في أرجائها، على كل مسمع، أن دونيو ضابط كبير في الجيش، يقود واحدة من تلك المركبات الكبيرة. يقود مركبة، ويرتدي بدلة عسكرية رفيعة الشأن، بوصفه ضابطًا عظيمًا! هو ذا قد أفلح دونيو، وبلغ غاية المُنى. صار للشاب الفقير بالأمس، منزلة يتحدث عنها أهل القرية.

فماذا عن دونشو؟ الشاب الآخر الذي لم يفز بنفس الحظ، فلم يدرك فرصة التعليم وبقي على حاله لا يقرأ ولا يكتب، الشاب الطويل القامة ذو البنية الحديدية والجسد الممتلئ قوة وعافية، الذي أجمع أهل القرية على أنه لم يذهب في حياته إلى مدرسة، ولم يطالع كلمة في كتاب؛ لأن أيامه منذ الطفولة الباكرة كانت بصحبة قطعان الماشية أو الأبقار والثيران، يعرفه الناس على هذه الحال، منذ أن رأوه يكبر وسطهم، ويعرفون أنه بغير أب. فالأب كان مجرد عابر سبيل ساقته الأقدار إلى هذه الناحية، لم يبت سوى ليلة واحدة منح فيها الأم دفء ليلة وتوأمين من الذكور، انقضت ساعته ولم تعد الأم تذكر حتى ملامحه، أو هي بمعنى أصح لا تذكر سوى أثر جرح قطعي في خده الأيسر، بطول إصبع من بقايا طعنة طائشة. قالت الأم إنه كان عاملًا بسيطًا، صنائعيًّا في ورشة حدادة.

قالوا إن دونشو ضل الطريق مع قطعانه مدة شهر بطوله، ثم تردد أنه بعد هذا الشهر أصبح مغنيًا وراوية للسير والحكايات، صار يشدو وسط أهل القرية بـ«سيرة ملك التبت المظفّر كيصار» وهي عبارة عن ملحمة شعرية تتغنى ببطولة أمراء التبت وملوكه من قديم الزمان، وتُعدّ إحدى أطول الملاحم التاريخية على مستوى العالم، من دون مبالغة، إذ تتجاوز جملة قصائدها مئات الألوف من أبيات الشعر. أخذ الراعي الشاب الذي لم يقرأ حرفًا في مدرسة وهو صغير، ينشد أجزاء مطولة من الملحمة على الأسماع. أهو شيء غير معقول؟ أم هي خوارق العادة؟

الأقاويل بشأن هذه المسألة كثيرة، أكثرها دورانًا على الألسنة يزعم أن الراعي دونشو ضلّ طريقه مع قطعانه، ذات يوم، فنزل أرضًا مسكونة بالسحر، تاه في جنباتها وغلبه النوم فنام. وكانت رقدته يومذاك فوق صخرة كبيرة مستوية (هنا مسألة دقيقة على درجة هائلة من الأهمية في سياق التفاصيل!) ومن حوله بدا المرعى وافر الخضرة والنباتات البرية. كانت تلك أرض محوطة بطلسم من السحر والقداسة كجبل خرافي، كبحيرة مرصودة، كعقبان في سماوات الأساطير، أو كأسماك وأصداف بحور مسربلة بالأسرار. كانت الحكايا كثيرة في كثرة سير العجائب والخرافات التبتية المشوقة، كما عهدها الناس على مرّ الزمان. ثم نزل النعاس بالراعي، فأغفى.

بعد حين نهض قائمًا من رقاده، وكان قطيع الحملان يرعى في الخلاء، والجو رائق، قام مستندًا إلى مرفقه يتطلع حوله حائرًا بعيون مثقلة وجسد منهك القوى، تأمل قليلًا وأدرك على نحو ما أنه لم ينزل بهذا الموضع من قبل، لم يأتِ إلى هنا قط، مع أن المرعى وافر الكلأ والطبيعة غذته من فيض أجوائها المترعة جمالًا ورخاء حال.

كانت الشمس في عز النهار، فاستقر مكانه هادئ البال، مرخيًا الوقت للقطعان حتى يهنأ لها المرعى، تمطّى بجسده المرهق ثم اضطجع ثانية دون نعاس، فقد فارق النوم عيونه وبدت له السماء صفحة صافية رائقة المدى، رائقة رَوْق أديم الصفو بعد انهمار زخات مطر، بدت في البعد سحابات متفرقة مثل مزق وشاح تناثرت أوباره. ألمّ به الجوع فمد يده في جيب

السروال والتقط فتات دقيق «التسانبا» [المحمّص] ودفعه إلى جوفه، ثمة في الأجواء كتلة صغيرة سوداء فاحمة، مرقت بين نثار السحب وانحدرت هابطة، كلما انخفضت عظُم جرمها وإذ انجلت ملامحها فإذا هي نسر نازل، ظنًّا منه أن الرجل الممدد فوق الأرض جيفة مطروحة في العراء، وبالفعل فقد هوى سريعًا وخمش وجهه بأظفاره، هنالك اعتدل قاعدًا دونشيو، أخرج مديته ذات النصل العريض، فزع الطائر وولى مدبرًا في اتجاه مغاير ريثما كانت قطع السحاب تتفرق وتتناثر بددًا، عاد النسر الجارح نقطة فاحمة القتام تدور في الأجواء، والسماء بساط من لازَورد، يسحر الألباب.

نهض دونشو قائمًا وقصد إلى شاطئ بحيرة، فشرب من مائها بضعة أحفان، مسح على بطنه منشرح الصدر واشتدت رغبته -على غير العادة- في الغناء. لم يكن من قبل شاديًا ولا مغرما بالشدو، لكنه رفع صوته بالألحان. فقد كان دونيو هو المعهود في طبعه الغناء، لطالما غنّى وهو جالس إلى جواره فلا يجاريه نغمًا أو إيقاعًا، بل يظل منهمكًا فيما يصنع حتى ليظن به الحاضر ثقلًا في سمعه؛ لأنه لم يكن يبدي رضًا أو سخطًا!

ثم إذا به الآن يرجّع صوته بالأنغام. فجأة، بدا له أن يظل يغني دون انقطاع، يغني أجزاء مطولة من ملحمة «كيصار» دون أن يعتريه أي شعور بالدهشة مما هو مقبل عليه من غناء سيرة البطل الشعبي (ولو أن تلك، في حد ذاتها، هي النقطة التي أثارت استغراب كل من عرفوه طوال حياته) كان يغني كأنه قد تلقى الألحان على يد معلم قدير في فنون الموسيقى والأداء، والأكثر مدعاة إلى العجب أنه، هو نفسه، كان يدهش عندما يلقاه الناس بعيون حائرة مليئة بالتساؤل عما جعل منه منشدًا للملحمة البطولية، على غير المتوقع. فيما بينه وبين نفسه فلم يكن يجد مبررًا لحالة الدهشة والتعجب التي استولت على جميع من حوله معتبرًا أن الشدو بتلك الملحمة البطولية الكبيرة التي تمجد سيرة البطل كيصار أمر طبيعي تمامًا، فما الغريب في أن يتغنى المرء بواحدة من أعظم السير التاريخية؟ ولماذا يصر الناس على سؤاله عمن علّمه هذا الأداء الجميل؟ قل لي، إذن، من علّمك فن رضاع ثدي أمّ في المهد؟

كلما سمع من أمه، أو من أهل القرية، أنه ضل طريقه مع القطعان مدة شهر أحس كأنه إزاء هذيان حمقى أو هلوسات أحلام. ماذا أصاب أمي؟ ما بال الناس في بلدتنا يتكلمون هكذا؟ صارت الأم عجفاء وتبدلت ملامحها عن ذي قبل، نعم، يبدو أن في الأمر شيئًا غير طبيعي، فقد كانت هي التي وضعت له في مخلاته صباح اليوم قطع الخبز المحمّص، بابتسامتها الحلوة التي لا تفارقها، بكل الصحة والعافية في محياها! الوجه باش والنفس راضية، ولم لا، وقد أعطتها الدنيا سعادة النظر في وجه ولدين طيبين! لكن شيئًا ما تبدّل الآن.

ثمة أيضًا أقاويل أخرى، غير ذائعة على الأسماع.

الوالد، أبو التوأمين دونشو ودونيو كان حدادًا بسيطًا، عابر سبيل، يتكسب الرزق أحيانًا من رواية السير الشعبية والغناء، أودع خصاله رحم الأم التي أنجبت ذكرين في آن معًا، فورث دونشو عن أبيه شيئًا من مواهبه. ونحن هنا نقترب، أو نكاد، من مسألة لها تعريفها العلمي الحديث في مفاهيم ما يطلق عليه الهندسة الوراثية، رغم أن الأمر برمته يظل رهن نمط من التفكير الفلسفي غير المعملي، لكن قيمته تكمن في الكشف عن ميل معظم الناس إلى تصديق الخرافة، علمًا بأن محتوى أي خرافة يتشكل أساسًا من عناصر روحانية أو مثالية، مع أنها لا تفقد مضمونها الجمالي. بالتأكيد أيضًا فإن المرويات الشعبية، شأنها شأن العناصر الوراثية، ستنأى بنفسها كثيرًا عن الاندماج مع منطق تفكير عقلاني.

كل أنواع الخرافات والأقاويل التي تنسج على هذا المنوال لا تلقى من الماديين، أي الآخذين بالتفسير المادي، إلا السخرية. وموقفهم هذا يقوم على منطق مقنع إلى حدٍّ ما؛ إذ ينطلقون من فكرة أن مثل هذه الحكايات والمرويات والخرافات تشتمل على تلوينات جمالية يتواضع عليها الفنانون الشعبيون في رواياتهم للملاحم التاريخية، بحيث يخلعون عليها قدرًا من الغموض. يقولون أيضًا، إن الهانيين، وهم أهل الحضارة الصينية الأصليون، يصعب عليهم فهم العقلية البدائية التي يخلط بها أهل التبت بين الدين والأساطير والعبادات القديمة برموزها المغرقة في الغموض، يقولون إن التبتيين بطبيعتهم يميلون إلى ابتكار الأساطير والخرافات ذات العناصر الجمالية، تمامًا مثلما يعشقون بل ويعبدون

المنحوتات البديعة: كالسيوف المطعمة بالفضة، الأقراط الذهبية، الخواتم والحلي وقلائد اللآلئ وأغطية الرأس بأنواعها، والضفائر المستعارة، والملابس والأبسطة والسجاجيد والطنافس، ومما لا يعد فلا يحصى من مثل هذه الأشياء.

في أعماقه كان دونشو يدرك مغزى الأمر كله، كان يدرك بثاقب نظره ما إذا كانت تلك أساطير أم هذيانات. كان يعرف تمامًا أنه ابن حداد، عابر سبيل، مرّ من هنا ذات يوم، كان يعرف كيف يشدو بملحمة كيصار رغم عدم تبحره في الفلسفة ومفاهيمها، كان يعرف كيف يغني، كيف يرفع صوته بأعذب الألحان شاديًا بالملحمة التبتية التي يقولون إنها أطول ملحمة بطولية في تاريخ العالم، ويستغرب عندما يجد الدهشة في عيون سامعيه. وإليكم، فيما يلي، جانبًا آخر من حكاية دونشو.

(١٣)

أنجبت نيمو ولدًا (تُرى هل وصل الخبر إلى دنيو، هل عرف أنه صار أبًا؟ ربما، فهو لم يكتب لها أية خطابات حتى الآن) كم انتظرت منه أن يكتب لها شيئًا، أي شيء، بل اقتنعت بأنه لا بد سيرسل إليها خطابًا ذات يوم. تُرى هل نسيها؟

أيًا ما كان، فهو لم يكتب لها، ولا لأجل طفله رجع. ظلت نيمو تقاسي شتائم أبيها ولعناته، وما أفظعها، فقد كان الرجل بوذيًا خالص الإيمان والتقوى، متعبدًا في محرابها منذ أن أدرك وجوده على ظهر الدنيا، منذ صباه الباكر، لكنه فقد امرأته في شبابه الأول ووجد نفسه مسؤولًا عن طفلة يتيمة، وهنت فيه إشراقة الإقبال على الحياة وانعزل منحرف المزاج منفردًا بكؤوس خمر يخمد بها سطوة شعور ممضّ بالأسى، حتى لم يعد يفيق إلا بعض وقت، بصدر حرج وذهن مكدود. لحظات الوعي الضئيلة، هي لحظات سخطه المحموم على الناس والحياة.

ابنته، نيمو، أنجبت ولد زنا فاستحقت اللعن وقسوة قلب عنيد. والرجل، الأب، يقبل على شعائره راجيًا من السماء أن تنزل نقمتها وغضبها على الزانية، عسى أن يقبل منه الدعاء في كل الأوقات، حتى وهو سكران، يعب من الكأس ثملًا يدعو بالشقاء وهو تائه عن الوعي، لم يعد أمام نيمو إلا أن تترك له البيت وتقوم قاصدة إلى أقصى بقعة من الأرض، تنصب خيمة وتدلف إليها مع ولدها، وتمضي بها الحياة على الوتيرة التي يستطيع خيالك أن يستقصيها.

كان هناك من يعرفون أن الطفل هو ابن دونيو، لكن المرأة لم تفتح فمها بشيء بل ظلت تلزم حدود الصمت لسنوات طويلة، لم تنطق بشيء. لعلها كانت تتكلم خفية مع وليدها، مع قطيع الحملان، أو مع كلاب الرعاة بذيولها المنثنية وفرائها الأملس. لعلها كانت تحدِّث نفسها جهرًا عندما تسنح لها ساعات العزلة، لكن أحدًا لم يسمعها تثرثر على أي نحو؛ وشيئًا

فشيئًا انحسر اختلاطها بالناس ولاذت بالعزلة، حتى نسيها معظم أهل القرية، وغفلوا عن وجودها.

إلى البيت القديم كانت ترجع. غالبًا ومع عتمة المساء، تدلف إلى مسكن أبيها خلسة، كنمر يأوي متلصصًا إلى وِجاره. أبوها في تلك الأثناء يكون قد انثنى بجذعه إلى وسادة مطوية فوق البساط وتردد غطيطه عاليًا وسط كومة أشياء متناثرة في أرجاء الغرفة، تأتي هي فتشمر عن ساعديها وتجمع كل النفايات، تضع القدر فوق النار، تغلي الشاي ثم تريح جسد أبيها ليستقر نائمًا مكانه، تمسح عن جانب فمه سيل لعابه وتبسط فوقه معطفه الواسع، تغطيه بردائه وتدوس فوق بقايا الرماد كي يثبت مكانه ولا يتطاير في الأنحاء، ومثلما جاءت تنسل خارجة، يذوي خيالها وسط الظلمة.

في تلك اللحظات يكون الصغير قد شبع من اللعب في جنبات الخيمة، ولا بأس، فالأم عائدة حتمًا مثلما انسلت ذاهبة تحت جنح الليل. تعود آخر المطاف، ووحدها تعود دومًا، من أين؟ من عند جده، لكنه لم ير جده في حياته، الولد ابن الثالثة من العمر يعجز عن الكلام، يتحجر لسانه؛ فليس ثمة من يكلمه أو يناغيه وسط الصمت الطويل سوى لعبه بمفرده، في سكون الحال، أحيانًا ينتابه الشرود الذاهل العميق، مثل الكبار في انشغال الخاطر بالأفكار وتصورات الذهن. قلما كان يبدي انشغالًا بالناس من حوله، سواء من العابرين أمام الخيمة أم الرائحين والغادين في الطرقات، بما في ذلك أمه التي أنجبته. متجهمًا يطالع الأشياء وقد ضرب صفحًا عن الانتباه، فلا الصوت الصارخ يفزعه ولا النغم الهادئ يرقّ له سمعه. يقبل على العالم من وجهته التي يطل منها، غير مكترث بضوضاء الدنيا ولغط الأشياء.

كعادتها، كانت نيمو في ذلك المساء ذاهبة إلى بيت أبيها، منقبضًا صدرها من وحشة الليل والسكون، غطت خديها بوشاحها، مشت والخطو يكاد يرتطم بعثرات الطريق الذي بدا خاليًا من كل حس، هناك كان الكهل مطروحًا ككومة طين لزج من الثمالة، سرعان ما أنجزت شغلها وقد انتابها شعور بالقلق، والعتمة ما برحت كعهدها في الأمسيات، والولد لا بد أنه نام. لكن ما علاقة الظلمة بطفل راقد؟ ولماذا انعقدت الصلة هكذا في خاطرها المشعث هذا

المساء؟ الصدر منقبض والشاي قد برد قليلًا في القدر، في هذا الكفاية الليلة فالوالد لا يريد أكثر من هذا ساعة أن يفيق وسط الليل، والأفضل أن يجد الشاي دافئًا قليلًا. ليس ثمة داعٍ للتريث أكثر من هذا، فلتغلق الباب وراءها وتمضي. الظلمة حالكة والقلب منتفض، وقد كادت أن تتعثر مرتين على الدرب الخالي، وليكن، فهي الطرقات ودأبها مع الخطى المتعجلة. عند اقترابها من خيمتها تهادى إلى سمعها صوت أنين خفيض، كلبها الحارس! ثم كان المنظر المريع.. ستارة الخيمة منزوعة وملقاة بعيدًا، المصباح الذي أوقدته قبل خروجها مطفأ، والجو معتم بالداخل. في أقل من الثانية أدركت كل شيء، أدركت سر انقباض قلبها وفزعها من مجهول لا تعرف كنهه، عندما التقطت علبة الكبريت من صدرها وأشعلت عود الثقاب ووقع بصرها على المنظر الذي رأته، لمدة ثلاث ثوانٍ ليس أكثر، سقطت من طولها جالسة، وقعت مكانها كالمشلولة، انقضى وقت وهي على هذه الحال وسط الظلام الحالك، ثم انتبهت إلى ضرورة أن تشعل الثقاب مرة أخرى، كي تحمل الكلب وتدخل به إلى الخيمة. كانت ذراعه مكسورة وثمة جروح عميقة فوق الفك العلوي من أثر عضة عنيفة، وآثار جروح قطعية في الجسم. فيما بعد فقد ثابر على الحياة ولم يمت. بقي حيًّا رغم الحادثة!

هو الدب!

لم تدرِ كيف تفسر شعورها بعدم الفرحة، أو، قُل عدم الدهشة أثناء الثواني الثلاث التي أعقبت إشعال عود الكبريت، عندما رأت طفلها راقدًا في أمان! ماذا؟ أما كان ينبغي لها وقتئذ أن تفرح وتمتزج فرحتها بدهشة؟ كل ما تذكره هي لحظة سقوطها، لحظة فقدان القدرة على التماسك، لحظة إنهيارها المفاجئ دون أن تعرف كم من الوقت مرّ عليها وهي على هذه الحال! لم يبعث فيها الانتباه إلا أنينًا صادرًا عن جريح مطروح، يلعق آلامه، هو ثالث أعضاء هذه العائلة الصغيرة، أفاقت على أوجاعه، بقيت طويلًا بعدها تتعجب.. أي دب هذا الذي يدع طفلًا راقدًا في أمان ليؤذي كلبًا، ويقلب كل هذه الأواني وأكواب الشاي، يثير جلبة مفزعة وسط هدأة ليل، دون أن يوقظ وليدها من نومه أو يمسه بأذى؟ هي تعرف ابنها جيدًا، وتعرف أن قدرته السمعية طيبة تمامًا.

من وقتئذ كانت نيمو تجلس تحت ضوء المصباح المتأرجح، تلحظ وجه وليدها النائم، تدقق النظر في شفتيه المكتنزتين وبشرة وجهه المائلة إلى الخشونة، تجتهد في استدعاء ذكرى تلك الليلة البعيدة مع دونيو، تذكر مشاعرها الكثيرة المتضاربة عندما أدركت أنها حملت منه. كانت تحاول جاهدة أن تستعيد ملامح دونيو في المرة الوحيدة التي لمحت فيها انقباض عضلات وجهه (ما أعذبه من انقباض يدعو المرء إلى مزيد من استعادة لحظته المفقودة!) دون فائدة! دون أن تفلح في تذكر أي شيء. لا فائدة، لا فائدة على الإطلاق. ثم كانت تميل بوجهها فوق وجه الطفل النائم، باحثة عن ملامح باقية من دونيو، بغير جدوى. وقعت في إسار دهشة لا فكاك منها!

دَهِشَت لشدة الشبه بين وجه الصبي وملامح دونشو. غير معقول، لا بد أنه الاستنتاج البليد من جرّاء تأخر الاستجابة الانفعالية. لكن انظر، أليس يشبه دونيو، حقًّا؟ ما معنى كل هذا؟ فكّرَت كثيرًا دون أن تهتدي إلى معنى.

شُفي الكلب، وعادت أسرة صغيرة من ثلاثة أعضاء تعيش حياتها على غرار زمن مستعاد.

(١٤)

صار دونشو منشدًا للسير والملاحم، فوق أنه راعي حملان وولد بار بأهله، بأمه التي كانت مثله تمامًا، لا تقرأ ولا تكتب. يجيء إليه ساعي البريد بالحوالة، ويقرأ له في كل مرة العبارات القصيرة المرفقة بها.. اسمعي يا أمّ، اشتري المزيد من الأكل، لا تبخلي على صحتك بشيء! أنا هنا بخير فاطمئني، وأعرّفك أن رقم الوحدة سري جدًّا فلا داعي لإرسال الخطابات من طرفكم، أنا الآن ترَقّيت إلى رتبة قائد مجموعة... الآن ترقيت إلى رتبة قائد فصيلة... تمت ترقيتي إلى قائد سرية، ولعلمك فأنا أقدر الآن على قيادة سيارة، عندي هنا مهام كثيرة فاعذريني إذا تأخرت عليك في الإجازات...إلخ إلخ. كل هذا كان يحفظه دونشو، كلمة بكلمة، لكي ينقله إلى الوالدة التي كانت تنصت مليًّا، بنفسٍ راضية وروح مفعمة بالأمل.

دونشو كان يقلّب موضوع نيمو في رأسه باستمرار دون أن يصل إلى شيء واضح ومفهوم، صحيح أنه كان الوحيد الذي يعرف مدى تعلّق أخيه بحبها، لكن هذا لم يكن يعني اعترافه بأن الولد الذي أنجبته نيمو هو ابن أخيه، ثم إنه وباعتباره راعي أغنام بسيط، فلم يكن يستطيع أن يحسب بدقة تامة فترة تسعة الأشهر التي استغرقها حمل نيمو وولادتها لطفلها، خصوصًا وأن الشيء البسيط جدًّا والمعروف للجميع أنها وضعت حملها بعد فترة طويلة من سفر دونيو، فمن يدري إن كان الولد هو ابن أخيه حقًّا؟ لماذا لا يكون ابن أي سلالة عفنة أخرى؟ ثم إن هناك واقعة حدثت تحت سمع وبصر الجميع، والدليل فيها حاسم حيث قد جاء على يد والدها نفسه، عندما طردها من بيته. ليس هذا فقط بل قد لعنها وأبرأ ذمته من غفرانها إلى يوم موتها (قالوا إنهم وجدوه ذات صباح، في بيته، ممددًا على بساطه ورائحة الخمر تفوح منه، وقد تيبّست مفاصله) هذا، فضلًا عن الواقعة الأخرى التي يعرفها دونشو تمام المعرفة بشأن الولد الذي نجا من براثن الدب. الولد ذو الأعوام الخمسة أو الستة من العمر، خشن البشرة ضخم الوجه، السارح مع أمه وراء القطعان قابضًا على

أطراف ذيول البهائم، لا رفيق له سوى كلب الرعاة والنسر الحائم في الأعالي. كل هذا يعرفه دونشو ويدركه إدراكًا مكين الرسوخ في قرارة النفس.

الآن، صار يخرج في سرحاته النهارية بقطعانه في المروج، إلى جواره ومن خلفه وقدامه آذان تنصت إليه وهو ينشد الملاحم والسير وروعة البطولة في تواريخ الشجعان، طالت الأيام به ولم يعد يسأله أحد عمن علّمه كل هذه الحكايا، ولا أين أو كيف استوعب عقله تفاصيل الأحداث وسرد الفصول، جاء اليوم الذي أصبحت فيه روايته لملحمة الملك كيصار طقسًا من شعائر الحياة اليومية بين رعاة التبت.

آه، لو لم تكن الذاكرة تضيق بما تحويه، إذن لبقي محتفظًا في تلافيف الوعي بإشراقة الأمل في عين أخيه، ليلة سفره الطويل. آهٍ، لو كان الطبع قد حباه بشيء من القدرة على استحضار جنبات من تفاصيل ما جرى، بشيء من رومانسية التذكار، إذن لاستطاع دفق خياله الحي أن ينسج وقع كل تلك الآمال، يرسم صورًا للأخ الأصغر وهو يقود عربة تجري جَري رهوان على طريقٍ مُعبّد إلى «تشنغدو»، إلى «شيآن»، «بكين»، «شنغهاي». صورة ضابط في زيه الرسمي على رأس جماعة من مجندين، صورة قائد فصيلة.. قائد سرية، صورة تحيا الآن في عين الأيام، فلتهنأ بحظوظ أيامك يا دونيو! ولتسعد بمرأى المشاهد في زمانك. تُرى كم رأيت من عروض التمثيل على خشبات المسارح في عمرك؟ كم من العروض انزاحت عنها الستائر في «لهاسا»، في «قلب الصين»، في كل الأماكن التي تخطر على البال، فلم تكن لتفلت فرصة اللحاق بأيٍّ منها. ذلك لأنك يا دونشو تعرف الكثير الكثير عن أخيك الأصغر.

تعرف أنه طاف بأرض التبت كلها، لم يدع موضعًا منها إلا نزل به: «شيغاتسي»، «آليشان»، «لهاسا»، «شانان». نعم، بل لعله زار أيضًا «تشاندو»، من ركن إلى ركن مضى، ألم يطارد يومًا قطيع غزلان منغولية وحده؟ بلى يقدر من دون رفيق، ويمسك بالقرون والأذناب فيوقع في شباكه منها العشرات والمئات، أعداد بغير حصر، فالولد ابن جَولات، صائلٌ، جائبٌ آفاق المدى.

قال دونشو لنفسه، إن دونيو لم يكن يعجز عن أن يطالع كتب الجغرافيا ويعيد الدرس على نفسه لكي يجوب العالم وتتفتح مدركاته على هذا النحو، بالتأكيد يستطيع، بنجابة عقله يستطيع، قال دونشو إن الولد ذو نباهة منذ يومه، حتى هو نفسه لا يدانيه موهبة.

حال دونشو الآن لا يختلف كثيرًا عن جملة أحواله المعتادة، يعمل ويشقى، ساعة الراحة يجمع روث الأبقار، يلتقط أنفاسه ثم يطوف في الأنحاء لجمع الحطب، يعود آخر النهار من تطوافه البعيد بأحماله على ظهره. وهو حتى الآن لم ينسَ وعد أخيه الأصغر له، ينتظر قدومه راكبًا عربة فيأخذه إلى جواره ذاهبًا به إلى حافة الجبل الغربي، لدى الغابة، غابة الجبل، يدوران في أنحائها يجمعان حمولة عربة من الأغصان الجافة، يتنكبان دروب الغابة البعيدة التي لم يبلغ حدها أيٌّ من الأهالي.

يتمنى كذلك أن يجيء اليوم الذي يشاهد فيه فيلمًا سينمائيًّا، فلماذا لا يأخذه أخوه إلى دار السينما في البلدة «لهاسا»؟

من يدري؟ فكل شيء رهن الاحتمال.

لكن.. ماذا عن نيمو؟ وعما قاله دونيو عنها قبل سفره؟ تلك أشياء لا يمكن لدونشو أن ينساها أبدًا، بل هو يذكرها كلمة بكلمة، فما العمل؟

لا أعرف ما الذي ينبغي أن يجيء بعد «ما العمل» هذه؟ لا أعرف إن كان ممكنًا مثلًا أن أضع عدة نقاط متجاورة، على نحو ما يرد عند حذف الكلمات التي لا داعي إليها في السياق؟ أو هل أكتب عبارة أو اثنتين لربط الفقرات؟ لا أعرف، ثم إني لا أجد شيئًا مناسبًا؛ لأن النتيجة مفارقة مغايرة للتوقعات، والمعضلة تكمن في إيجاد معيار مناسب (معيار أخلاقي، يعني) لقياس مدى ملاءمة النتيجة لما هو مقبول. المسألة بكل وضوح هي أن دونيو قد أصبح بالنسبة إلى المرأة نيمو طريقًا ضائع الخطى، أصبح مفقود الأثر! وبالنسبة إلى دونشو فهو ما زال جائلًا في طول البلاد وعرضها على قدر اتساع طاقة الخيال. في عين دونشو بدت نيمو مجرد أم لولد سفاح (لم تعد، منذ زمان بعيد، حبيبة أخيه الأصغر دونيو) في الوقت

نفسه، فهي أنثى في عمره تقريبًا، ليست دميمة على كل حال ولا هي قد جاوزت العمر. إلى آخر تلك الأشياء.

هكذا، فقد وارت جثمان أبيها لدى شاطئ النهر، مرت عليها ساعات طويلة وهي واقفة بجوار مدفنه لا تغادره، قيل إن عينها لم تذرف عليه قطرة دمع، انقضى العام، قصدت إلى دونشو، وقت أن كان يجمع روث البهائم، والشتاء كان في أوله. لا أحد يعرف ما الذي قالته له وقتها، لعلها قالت.. «تزوجني!» أو.. «اتخذني امرأتك». كذا ببساطة ووضوح، لطالما بقيت صامتة نيمو مدى الأيام حتى لم يعد في طاقة الكلام عندها إلا القليل. وأظن أنها بالفعل قد دخلت خيمته مع ابنها الذي كان يمضي وراءها ساحبًا ذيل القطعان، ساكتًا مثلها. أما عن رأي والدة دونشو في الأمر وما انطوت عليه جوانحها من مشاعر تجاهه، فالقارئ يعرف ما الذي يمكن أن تشعر به عجوز تجاه حفيدها الأول، ولا أظنها ترضى بأن تعتبره ولد زنا، بأي حال!

(١٥)

إلى هنا فقد انتهت القصة تقريبًا، لكن يبدو أن بعضًا من القراء سيجدون أنفسهم أمام عدد من الأسئلة حول جوانب ذات صلة بتقنية الكتابة وفن السرد، ولنحاول هنا تخيل مثل هذه الاسئلة في نقاط محددة:

أ. فيما يتعلق ببنية القص، فنحن تقريبًا أمام ثلاث قصص مستقلة بعضها عن بعض، وقلما تنشأ رابطة داخلية بينها، وهذه مسألة تقنية خالصة، سنحاول توضيحها.

ب. في مسار السرد، أو، خط السرد الرئيسي، نلاحظ أن دونيو يبقى معنا حتى الجزء الأول ثم وبشكل غريب، غير مفهوم، نفقد اتصالنا به فيما يلي ذلك ولا نفهم مثلًا لماذا لم يرسل خطابًا إلى نيمو، على الأقل، ولماذا لم يظهر مرة أخرى في فصول السرد التالية؟ وتلك مسألة أخرى متصلة بطريقة الكتابة، تحتاج إلى توضيح.

ج. بخصوص المآل السردي [إن جازت التسمية، اصطلاحًا] فلنفترض هنا أن دونيو قد عاد من سفره، تُرى ماذا كان يمكن أن يحدث بين العائد وأخيه التوأم، وبين دونيو وامرأة أخيه نيمو؟ وكيف يمكن تفسير دوافع الشخصيات الثلاثة وعلاقتها بعضها ببعض؟

والنقطة الثالثة، تلك، تقودنا إلى مشكلة تتعلق بكل من تقنية الكتابة وفن السرد معًا.

طيِّب، فلنتأمل أولًا النقطة الثالثة.

أساسًا، فإن دونيو لن يرجع (ولم يكن من المتوقع أن يرجع، وبالتالي، مع استبعاد احتمال رجوعه تصبح الأمور أكثر بساطة) لأنه وبعد التحاقه بالخدمة العسكرية بقليل سيلقى حتفه شهيد الواجب، وسيكون على القائد أن يتصرف بإنسانية إزاء الأم المسكينة ويقرر

إخفاء الخبر عنها، يقوم سيادته بدور الابن الغائب على مدى عشرة أعوام كاملة، يتولى خلالها إرسال مبلغ ألفي يوان عبر حوالات بريدية، ثم...

تُرى، عزيزي القارئ، هل نحتاج حقًّا أن نواصل شيئًا بعد «ثم» هذه؟

(١٦)

ثمة من يأتي ويسأل ياوليان عن سبب مجيئه إلى هذه البقعة من الأرض، المعروفة بأنها واحدة من أسوأ الأراضي القاحلة، فيرد عليه بروح الشاعر المتفهم لكل نوازع الدهشة، بفخامة الأداء الإبداعي، عبر أبيات من الشعر نوردها فيما يلي:

موكب من أغاني الرعاة

تدفقت جموع إلى أعتابك

مأخوذة بسحر القول والكلمات

قيل إن ثمة في الشمال، أقصى الشمال

تلال سامقة الذّرى

رؤوسها ثلجية على مدار الأوقات

ليس فيها سوى،

قطعان أغنام وحشائش معطوبة

تتحلّق حول الخيام على هواها

تتسكع وتنطرح متراخية الأطراف

وثمة أحجار غامقة متناثرة

أحجار سوداء ملء جبال

وفي الجنوب صخور متراكبة

ألوانها مزيج من بياض وزُرقة

أأقول كلماتي نفسها مرة ثانية؟

ألم أقل بأن جموعنا تدفقت إلى أعتابك؟

وأنك في التذكار باقٍ إلى الأبد؟

فوق ذرى الجبال تصفو الأحداق

يتجلى رائقًا وجه القمر

ووجه عملات معدنية باهتة

ست حلقات مدورة من النيكل الصدئ

ألم يكن مقصدنا إلى المعبد، مذ جئنا؟

ابتهالات ترجو عون القدر

نتعلم من عظام الموتى

دروس التحليق في الخيال

عن نفسي، فقد قلت لا

أطلقت ما في نفسي بحزم

كي تعرف الجبال

أن الطفل الذي كان

قد كبر، وعرف مقدار الواجب

من المهابة والتوقير.

والمثل السائر يقول:

في الثلاثين ينضج الرجال.

أرى نفسي راكبًا جوادًا أبيض

رامحًا فوق المدى

أتوقف ريثما ألتقط الأنفاس

يقضي الفرس حاجته

لا أشرب الشاي على طريقتكم

يتهيأ لي أن رياح السهول

مرصعة بشتى الألوان

ما دامت تشرع فوق الأفق الجناح

هل بلغ بي الحال أن يغبرَّ وجهي

ويمتلئ أنفي بالحصى والتراب؟

أستحلفك ألا ترفع السوط

في وجه جواد رامح

للفرس أمٌّ يشقيها الأسى

كلما اشتطّ بوليدها لفح السياط

وراء كل صقر مشرع الجناح

ألمح جدارًا ناصع البياض

وراء الجدار ثمة قصر منيف

ذهبي الحوائط والعُمُد والأركان

وفتاة حلوة راعية أغنام

تقول بكل فخر إن البناء

علامة على الجبل وشارة التلال

صبية تمشط شعرها ذا الجدائل

تنثر سبعًا وسبعين ضفيرة

يفترّ الثغر عن أسنان بيضاء

تطالع وجه الجواد ضاحكة

أقول لها: من لدن بحر «بوهاي»

جئت، رامحًا فوق حصان

فأنا شاعر هائمٌ حبًا بأغاني الرُّعيان

قد انقضى شطر الليل الأول

ونحن ننشد الشعر والأغنيات

وسط حقول باقية بعد الحصاد

قبالة محاق لم يكتمل به الدوران

قمر في مبتدأ الاستدارة

نشدو بأنغام مثقلة بالأسى

للنهر الراقد تحت الجليد

للأمسيات التي تباينت مباهجها

للوحشة في صدورنا، ونحن جمعٌ

فوق عربات تجرها الجياد

صبِيَّة من الرعاة أقبلتْ

أوقفت هدير الشدو والإنشاد: «كيف يسقط في أرضكم الثلج، مثلنا؟»

يا للحيرة! كيف أرد على السؤال؟

نعم، يا بُنيّتي، ذاك هو الحال

هناك وهنا، يسقط الجليد في أرضنا

لماذا أغُذّ الخطى متسرعًا؟

لماذا أحث فرسي على الانطلاق؟

لا بد من المرور بمضيق «شانهاي»

كي أصل غربًا بمحاذاة السور العظيم

وربما عرّجت على حديقة «يوان مينغ»(6)

أتطلع إلى بحيرة لوتس وبقايا أطلال

وكومة أحجار هائلة الجرم

أدركت حالًا أني كنت أسابق الزمن

لم يكن لي أن أنطلق بهذا الاندفاع

مرقت سريعًا، حتى نسيت نفسي

نسيت من أنا! (الله مدبّر أمر الكون) تُرى من أين جئتُ؟

كم أندم على مجيئي الباكر

إلى سفح جبل «بودالا»

كم أذكر موج بحر يتقلب فائرًا

ورذاذًا ملحيًّا رطبًا يلذع الوجه

كتبت شعرًا عن البحار الذي

يقود مركبًا بشراع أحمر

كتبت كلمات فارغة الأمل

ليست كأغنيات مسافر، على طريق

وكتب «لوقاو» شعرًا، يقول فيه:

الحمـائم

كنت لما رأيت نهر «لهاسا»

دافقًا متقلب الأمواج

قلت هذا ليس بالمدى القاحل

ألا ترى كم مضى من الوقت، وتأخرتُ؟

هل ثمة من يدرك حال النسور؟

تُرى هل من يدرك الشر المستطير،

في مناقيرها المعقوفة والمخالب؟

لولا جزيرة ناصعة في قلب النهر،

ما كنت لأنتبه إلى وجه مجلل بالوقار

كلما تخيلت نفسي صخرة

سئمت كل اضطراب وشقاق

أعرِض عن هذا القول، إياك..

أن تكثر من هذا السخف

«الولوج إلى جبل من الصخر،

هو، عندي، أول خطى الطريق»

لا يهمني إن ألقيت بنفسي في نهر جليدي

وانصدع رأسي، فمن أنا بين الشعراء!

كنت أقصد، حقًا، أن أقول

إني مجرد قطرة في بحر

مجرد أحد تلك الأشياء المعتادة

كدخان قدور الطهي، وكل هذه

القرى الكثيرة، والألقاب والأسماء

القرى التي لا يروق جمالها

إلا في ساعات المغارب

هكذا، جئنا وقد عبأنا الحقائب

بأصباغ شفاه وعلب وأدوات منع الحمل

(قد جئنا لتمضية بعض وقت

يا للغباء، يا للقلوب المشبعة حمقًا

ألم نقل قبل هذا بزمان إننا

سنقيم هنا وننجب أبناء بعدد الرمل) انتبهت فجأة، من غفلة الوقت

لم يعد الحب يهبني الإلهام

ولم يعد في الأجواء حمائم

ليس سوى أسراب من يمام البرّ

تحط على جدران المعابد

تنزل على الحيطان الخلفية

أسرابًا بغير حصر

(تمت)

يونيو ١٩٨٣/ فبراير ١٩٨٤

نشرت لأول مرة في ١٩٨٥

(6) حديقة تاريخية في بكين، أقيمت في القرن الـ١٨ وانهدمت في القرن التالي على يد القوات الإنجليزية والفرنسية، إبان حرب الأفيون الثانية على الصين (١٨٥٦) عن الحديقة

كان يقول فيكتور هوغو.. «هي مثال الفن والروعة!» (المترجم)

تعقيب المترجِم

إذا كان ممكنًا لروايةٍ قصيرةٍ في تاريخ الأدب الصينيِّ الحديث والمعاصر أن تحمِل خصائص زمانها وروح عصرها وشخصيَّة كاتبها وكلَّ العناصر التي تتحقَّق بها طفرة في سرديَّةٍ حقيقيَّةٍ فهي هذه الرواية القصيرة التي بين أيدينا؛ ذلك أنها التعبير الدقيق والموجَز لما عُرف في تاريخ الأدب الصينيِّ المعاصِر بمصطلح «أدب الفترة الجديدة» في أبعاده الفنية الجمالية وخصائصه الاجتماعية والظروفِ المحيطة بتشكيل السمات الإبداعية لروّاده، وتأثيرِه اللاحق على تيارات الإبداع الروائيِّ والقصصيِّ.

وأهم شيء في قراءة النصوص الإبداعية الصينيّة -في وجهة نظري- هو معرفة الظروف العامة المحيطة بعملية تشكُّلِها وإنتاجها وانتشارها.

أتصور أنه لا بد من معرفة موقع النصوص الأدبية الصينيَّة من تاريخ بلدها، فهذا مهم بصفته مدخلًا ضروريًّا لفهم كثير من الأبعاد التي تنطوي عليها العناصر الفنية الجمالية للسرد. لا أقول إن فهم الرواية الصينيّة الحديثة والمعاصرة -أو حتى الكلاسيكية- متعذِّرٌ من دون هذه الخلفية، لكني أقول بوضوح وصدق مع القارئ في اللغة العربية: إن هناك ضرورة مُلحَّة للاطلاع على ما يشبه «حيثيات» ظهور سردية روائية، وصحة نسبتها إلى «هُوية» لها خصائصها الإقليمية الواضحة.

دعك من أن عددًا من الروايات العالمية نالت حظها من الشهرة والذيوع دون أن يحتاج أحد إلى معرفة كل هذه الأشياء عنها، فهناك عوامل ساعدت على هذا الذيوع إما من طبيعة النصوص وامتلائها بقيم إنسانية مشتركة تغني عن استقصاء خصائص وخلفيات، وإما من ظروف محددة ذات صلة بصناعة النشر أو الدعاية، إلخ.

مهم جدًّا -في هذا السياق- القول بأن عملية ترجمة الأدب عن الصينيّة -بالوسيط المعجمي اللغوي- لا بد لها أن تتكامل مع جهود التعريف بتاريخ الصين في جوانبه المتعددة حتى

السياسي منها، وليس عجبًا في هذا الصدد أن نلحظ استلهام مراحل الكتابة الأدبية الصينيّة للخطاب السياسي، من ذلك مثلًا تسميةُ مرحلة الإبداع الأدبيِّ من منتصف ثمانينيَّات القرن العشرين حتى الحِقبة الأولى من الألفية الثانية بـ«الفترة الجديدة» هي في حقيقتها استلهامٌ لتعبير ورد في خطاب سياسيٍّ (الرئيس دنغ شياو بينغ، معلنًا بدء سياسات الإصلاح والانفتاح) يبشِّر ببدء «فترة جديدة» 新时期 في تاريخ البلاد مع مطلع الثمانينيات! وكذلك وبالتجاوب مع الصيغة نفسها يدخل الأدب المعاصر مرحلة «العصر الجديد» تمشيًا مع مناخ سياسي يحمل الآن التسمية نفسها تعبيرًا عن حالة حضارية عامة في سبيلها إلى أعتاب «عصر نهضة» جديد، تنطلق من الصين وفي خصائصها نفس ما تحمله كل عصور النهضة من رؤية جديدة لمرحلة مختلفة من عمر الإنسانية.

لنطالع معًا بعد هذا التمهيد ظروف كتابة «غواية الجبل والأحلام» «冈底斯的诱惑» على يد الروائيِّ الصينيِّ «مايوان».

كانت قصص هذا المبدع جزءًا مهمًّا من مشهد لامع في سماء الأدب في زمنه عُرف وقتها باسم «تيار الطليعة»، وكان عبارة عن فترة أدبية ورثت مرحلة سابقة عليها كانت تسمى بـ«أدب البحث عن الجذور»، ولم يكن الاسم تعبيرًا عن بحث حقيقي في الجذور لكن اهتمام الأدباء كان منصبًّا على استقصاء ملامح شخصية صينية «تتمتع بالأصالة والحداثة» من قلب الماضي المضطرب، لكن يبدو أن محاولاتها المضنية انتهت إلى مزيد من الشك والحيرة والرؤى الضبابية، وبالتالي فقد جاء «تيار الطليعة» من يومه الأول مغرقًا في التساؤل والشك بدوره، وتصوَّر أن اكتشاف تقنيات سردية جديدة هي سبيله إلى فهم كل تلك الجوانب المركَّبة في حياته وأحوال الدنيا من حوله، وأن امتلاكه أدواتٍ جديدةً في التعبير عن نفسه يمكِّنه من الكشف عن الطبيعة المركبة في حياتهم.. كان «مايوان» (١٩٥٣ـ) أحد أفراد هذا التيار، بل كان أحد أعلامه البارزين.

وُلد هذا الروائيُّ في مدينة «جينجو» 锦州 شمال شرق مقاطعة لياو نينغ 辽宁省، وعندما بلغ مرحلة الصِّبا توجه إلى بكين في فترة ما من سنة ١٩٦٦ تلبيةً لنداءٍ وجهته

الحكومة إلى الشباب بالانخراط في النشاط الثوريّ، وكانت تجرِبة العمل في بكين آنذاك هي الحدث الملهم لروايته «غيلان وشياطين» - عندما سئل فيما بعدُ عن اختيار هذا التاريخ [١٩٦٦] خلفية لأحداث هذه الرواية قال إن الروائيَّ الذكيَّ يعرف كيف يختار الزمن الملائم لدخوله في أجواء السرد، وعندما تلتقي نقطة البدء في حياة امرئ ما مع لحظة كبرى في مجرى تاريخ بلده يومض شهاب النضج في تاريخه الشخصيّ.

في السبعينيات يدخل مايوان ضمن أفواج الشباب الملتحق بفرق الإنتاج فيما سُمي بـ«جي تشينغ» 知识青年 (شبان فرق العمل من المتعلمين) بعد فترة يعود إلى مسقط رأسه، ويلتحق بمعهد النقل الميكانيكيّ للسكك الحديدية منتظمًا في دراسة فنية متخصصة، وفي ١٩٧٦ يتخرج في المعهد ليعمل خرّاطًا في بلدة «فوشين» 阜新 يقول عن هذه الأيام: «كانت تلك تجرِبتي الوحيدة في العمل بالمناوبة حيث أذهب إلى العمل وأغادر في مواعيد منتظمة، كانت حياتي مملة، وليس سوى كتابة القصص وسيلة لدفع الرتابة».

لم يستطع المداومة المملة على إصلاح الماكينات المعطوبة فالتحق في ١٩٧٨ بقسم اللغة الصينيّة بجامعة الإقليم منتسبًا بالدراسة الجامعية، كانت أمامه فرصتان لدراسة عليا: الأولى في الهندسة والأخرى في اللغة الصينيّة، فكان أن بدأ بالأولى ثم عدل عنها إلى الثانية، في تلك الفترة كان قد انتهى من كتابة عشر قصص قصيرة دون أن يسعى إلى نشرها، وهو الحال الذي سيلازمه حتى يُنشر له أولُ عمل قصصيٍّ في مجلة «فنون الشمال وآدابه» «北方文艺报» كان وقتئذٍ قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره.

في ١٩٨٢ يسافر إلى التبت محررًا صحفيًّا، وكانت تلك هي الرحلة التي شكلت أهم مصادر إبداعه، بعد وصوله إلى هناك عمل في أول الأمر مراسلًا مقيمًا في إذاعة الإقليم، ثم محررًا في بيت الفنون، ورغم أنه كان في مهمة عمل فقد كانت الرحلة بمنزلة منحةِ تفرُّغ لإنجاز أروع أعماله القصصية، كان مفتونًا بالتبت وأهلها والأماكن والدروب، لم يدع ركنًا إلا تجوَّل فيه، زار كل الأنحاء، تمشّى في شارع «بارخور» 八角街 أطلَّ على الوجوه والملامح، قال عن مشاهداته: «الأرض هنا مكان عجيب حقًّا، هنا موضعٌ يمنح المرء خيالًا واسعًا وزاوية

متفردة للرؤية وإدراكًا لمغزى الجمال ومكامنه، ليس ثمة مكان آخر يشبه التبت من هذه الناحية..» يقول أيضًا: «كنت أشعر وأنا هناك أن الشمس جديدة تمامًا كل نهار، كلما خرجت إلى الشوارع أحسست أني على موعد لمشاهدة أعجوبةٍ ما من أعاجيب المكان! وهذا شعور لم أجرِّبْه في أي موضع آخر من الأرض ذهبت إليه.. لو لم تُتح لي فرصة المجيء إلى هنا لما استطعت كتابة القصص على هذا النحو الذي ظهرت به، كتبت لي أرض التبت ميلادًا جديدًا، أجابت عن تساؤلاتي الروحية..».

قيل بعد هذا إن هذه الزيارة غرست فيه بذرة وجدان مفعم بالتصوف، صارت تلك البقعة نبع إلهامه الروحيّ والإبداعيّ، وهناك نبتت أفكار معظم قصصه: «آلهة لهاسا» و«أغنية هيمالايا القديمة» و«الشاطئ الغربي الخالي» و«اختلاق» و«غواية الجبل والأحلام»، والتفاتًا إلى عنوان هذه الرواية الأخيرة فقد كانت الرحلة لونًا من «الغواية» فعلًا؛ حيث بدا له أن يجرِّب رحلة سفر إلى أقصى موضع في الصين خصوصًا وقد سئم البقاء في بلدته، لم يكن السفر خارج الوطن متيسرًا حينئذٍ، فلما أزمع الترحال جاء بالخريطة وبسطها أمامه وحدد موقع مسقط رأسه: بلدة «جينجو» في أقصى الركن الشمالي الشرقي من الصين، ثم مر بإصبعه إلى أبعد نقطة على الخريطة فإذا هي منطقة التبت، على الفور تقدم بطلب النقل إلى هناك لكن الموافقة تأخرت كثيرًا، التحق بالجامعة وبعد التخرج كان جاهزًا للرحلة التي جاءت الموافقة عليها آخر الأمر، سافر وقضي هناك سبع سنوات ثم عاد في ١٩٨٩ إلى لياو نينغ مرة أخرى حيث عقد العزم على الالتحاق باتحاد كتاب «شن يانغ» كاتبًا متفرغًا.

كان هذا التصرف من جانبه محاولة للتشبث بما تبقى في أعماقه من مكامن الحكي خصوصًا أن الخروج من التبت كان أشبه بالخروج من الجنة.. جنة إبداعه!

العودة من التبت كانت أشبه شيء بالنفي بعيدًا عن نبع الإلهام، وهو قد اضطُّر إلى هذا في ظروف صعبة فرضت عليه قراره. كانت زوجته (الكاتبة «بيبي») تريد العودة إلى لياو نينغ بينما شروط العمل تنصُّ على أن استمرار الزوج في مكان العمل يستوجب بقاء الزوجة إلى

جانبه تجنبًا للانفصال، لكن الزوجة أصرت على العودة خوفًا على حياتها في منطقة جبلية بعيدة مثل التبت حيث تعرضت كاتبتان للإيذاء، ظنت أن الدور عليها، لم يعُقْها مايوان عن قرارها فعاد معها (في ١٩٨٩) لكن العودة سلبته إلهامه، فارقته روح الإبداع وتوقف عن الكتابة بعد أن كان قد أصدر في ١٩٨٤ عددًا من القصص والروايات القصيرة، مثل: «آلهة نهر لهاسا» و«قارب بلا شراع في البحيرة الغربية» و«اختلاق» و«سهول في كل مكان» و«التعلّق»، وهذه النوفيللا التي بين أيدينا «غواية الجبل».

رغم سفره بعد هذا إلى التبت مرات كثيرة لكن قلمه لم يكتب حرفًا، بدأت هنا رحلته الطويلة إلى أماكن مختلفة محاولًا أن يستجمع شتات نفسه، كانت حالته تلك جزءًا من حالة الصين الاجتماعية والسياسية والنفسية منذ أول الثمانينيَّات.

في كل منعطف من حياة مايوان سنجد ملمحًا مشتركًا مع أبناء جيله، أعني بهذا «جيل كتاب تيار الطليعة» الذين بدءوا رحلة جديدة في حياة الأدب الصينيّ في الربع الأخير من القرن العشرين، رحلة اكتشاف العالم من حولهم ومحاولة اكتشاف شخصية جديدة ومفردات جديدة للتعبير عن أنفسهم، كان هذا هو المنحى الذي تميز به عددٌ من المبدعين الشبان وقتئذٍ، مثل: يوهوا، وسوتونغ، وجيفي، وهون فنغ (أولئك هم النمور الخمسة في التيار الطليعيّ كما قد يقال) باعتبار أن كتاباتهم كانت تعكس الرؤية الذاتية لتجرِبة حياتهم بوصفها وسيلة فهم الحياة من حولهم، كان عالمهم الداخلي هو المرتكز الذي تستند إليه تجرِبة الرؤية الحقيقية والفهم السليم مثلما كان هذا العالم الذاتي هو موطن التكامل الذي تلتئم عنده عناصر وعي جديد بعد تجرِبة قاسية إبان الثورة الثقافية -سأعود إلى هذه النقطة لاحقًا بشيء من التوضيح- المهم الآن هو التأكيد على أن التجرِبة الذاتية لجيل التيار الطليعي كانت هي مِفتاح عالمهم الإبداعي.

من هنا نجد أن مايوان نفسه يؤكد باستمرار على أن أعماله تصدر عن مادة «جاهزة ومُعاشة» بمعنى أن مادتها مستندة إلى تجرِبة حياة حقيقية، وفي هذا فهو يقول: «كانت رواية «آلهة نهر لهاسا» قد سجلت بصورة واقعية رحلة قمت بها في صيف ١٩٨٣،

والتفاصيل الواردة بها واقعية مع أني لا أستطيع الجزم بهذا مئة في المئة، لكني استطعت توحيد القالب الإبداعي وفق إطار الحياة.. فالفنُّ هو الحياة». وفي سياق آخر يتكلم عن أجواء كتابة رواية «غيلان وشياطين» فيقول: «يسألني كثير من الناس كيف كتبت هذه الرواية فأجيب عليهم قائلًا: إن السبب في كتابتها هو المرض الذي أشرفت به على الموت، كنت كمن أصابه داء مميت، وصار وجهًا لوجه مع النهاية، لم يكن الجزع في مواجهة الموت هو الذي ملك عليّ نفسي بل التأمل العميق في نمط الحياة ككل، عندما تتكشف للمرء أشياء لم يكن يلحظها من قبل يفيق على حقائق جديدة لم يكن يراها طوال عمره».

تلك هي مقالته في سياق التعبير عن ذلك المنحى في الكتابة، أقصد به المنحى الذي اتسم به «تيار الطليعة»، وفي مقالته هذه نلحظ تعبيرًا موجزًا عن الأجواء التي شكلت باعث الإبداع عنده، بوصفه أحد رواد القصة الصينيّة الطليعية التي قيل إنها تنتمي إلى «جماليات ما بعد الحداثة».

أستطردُ الآن في تتبع مسار تجرِبة الرحلة الذاتية عند مايوان عسى أن تتبدى لنا من خلالها الطريقة التي جسّدت رؤية أحد رواد «تيار الطليعة»، وتشكلت بها للقصة الصينيّة الحديثة عند جيل من رواد هذا التيار ملامح جديدة تمامًا على مستوى البنية الفنية والمادة السردية والموضوع.

أعرض هنا للفترة التي توقف فيها مايوان عن الكتابة عقب عودته من التبت حيث تخبطت به مسارات الحياة.

عن هذه الفترة يتكلم الروائي يوهوا -وهو أحد رفاق مايوان في تيار الطليعة- يقول: «في أواخر الثمانينيات كنا ندرس في معهد لوشون للأدب، وكنت أزور مايوان بصحبة عدد من الأصدقاء، كثيرًا ما ذهبت إليه بصحبة «جيفي» 格菲 فكان يستقبلنا بوجبة طيبة من أطباق الدواجن المحمّرة، ومن وقت إلى آخر يأتي لزيارتنا في المعهد، كنت أقيم في تلك الأيام في مسكن واحد مع «مويان» الذي اضطرته ظروف كثيرة إلى العودة إلى بلدته، وفي أثناء غيبته كان مايوان ينزل عليّ ضيفًا، يبيت عدة ليالٍ ثم يؤوب إلى مسكنه، كم سهرنا

حتى الصباح ونحن نتحدث عن الكتابة والإبداع! كان ذلك أجمل الزمان، تحدثت معه طويلًا وقت أن كان مقيدًا بوظيفته في التبت، ولفترة ما عاد إلى «شن يانغ»، وبالمناسبة فهو من أشد الناس التزامًا بالمواعيد، لكن شيئًا واحدًا يعيبه وهو كثرة التردد، ما يكاد يبدأ مشروعًا حتى يتحول عنه قبل أن يتمّه، فعلى سبيل المثال قد تحمس في تلك الفترة لإقامة أحد الأنشطة لاتحاد كُتَّاب مقاطعة «لياو نينغ» ودعانا إلى الحضور، تلك هي المناسبة التي اضطرت الأديب [الراحل] شي تيشنغ 史铁生 إلى أن يقطع أطول سفر في حياته (وهو المريض المُقعد) فقمتُ مع مويان و«ليوجن يون» وحملناه على أكتافنا حتى صعد القطار، تكفّلتُ مع مايوان بحمل الحقائب، فلما بلغنا «شن يانغ» أصرّ مايوان على حمل زميلنا المقعد على ظهره نازلًا به من القطار.. ذات مرة نزلنا كي نلعب كرة القدم في ملعب مخصص لكرة السلة فقسّمنا أنفسنا فريقين وأقمنا «شي تيشنغ» حارس مرمى وبقي مكانه على كرسيه المتحرك لا يدري ماذا يفعل بالضبط، أوضحنا له بأن يلزم موضعه وليس عليه إلا أن يصدَّ الكرة قدر الإمكان، وبالتالي فقد حرص الفريق المقابل على أن يلعب باحتراس لئلا تندفع الكرة فتؤذي المسكين، وهو ما أتاح لنا مهاجمتهم بعنف.. طفقنا نضحك وخرجنا إلى الحقول.. لو ظللت أحكي فسأملأ صفحات طويلة، غاية الأمر أننا بقينا في البلدة عدة أيام إلى أن سافر مايوان قاصدًا «هاينان»، فهو رجل دائم الترحال لا يقرّ له قرار، كان هو الذي اختار بنفسه الذهاب إلى التبت، وحتى في التبت لم يستقر طويلًا في عمله، ولأنه طويل القامة، ضخم الجسد، دائم التطلع إلى من حوله بشيء من التعالي فقد كان يثير النفور ضده، من ثم فقد كان متبرمًا كثير التشاجر مع كثيرين، منهم مدير مجمع الفنون -رئيسه في العمل هناك- وتفاقم الأمر إلى أن صاح به المدير آمرًا إياه ألا يعود إلى العمل ثانية، وبعدها امتنع عن الذهاب إلى المجمع تمامًا بينما ظل يقبض راتبه، ثم عاد إلى بكين لبعض الوقت معتبرًا نفسه مطرودًا من العمل نهائيًّا، قضى معنا زمنًا ثم قرر السفر إلى «هاينان» وهناك اقتنع بفكرة عمل فيلم تسجيلي بعنوان: «حلم الأدب الصينيّ»، وجاءنا ذات مرة ومعه كاميرا تصوير فسجّل معنا جزءًا من الفيلم.. بعد هذا أخذ يرتحل هنا وهناك إلى أن استقر حينًا من الوقت في جامعة «تونجي» 同济大学 بشنغهاي مدرِّسًا بقسم اللغة الصينيّة هناك، وكان قد دعاني لإلقاء بعض الندوات فذهبت إليه، وساعة أن توقعت

أنه وجد هناك مستقرًا فاجأني بانتقاله إلى مكان آخر فعرفت أنه مقيم في المستشفى مريضًا، وسرعان ما أشيع أنه هرب منها قاصدًا «يوننان».. كانت السنوات الماضية قد شهدت عدم استقراره وترحاله المتصل، أحيانًا كنا نجهل مكان إقامته الجديد، ونظل نتساءل عما إذا كان أحدنا قد رآه أخيرًا! كم أسفت له عندما قالوا لي إنه توقف عن الكتابة».

عمله بجامعة تونجي سنة ٢٠٠٠ متزامن مع توقفه عن الكتابة بيد أنه كان قد توقف عنها حتى قبل مرضه.

قيل إنه قصد إلى شنغهاي حيث ظنها المكان المناسب لإقامة مستقرة لكن الظروف عاندته خصوصًا مع مطلع عام ٢٠٠٧، وبعد الارتباط بزوجته الجديدة «شياو هوا» أصيب بالتهاب جلديٍّ (حزام النار) فدخل المستشفى للعلاج، وأثناء العلاج اتضح وجود كتلة سرطانية بالرئة حجمها ٦.٥ × ٦.٧ سم، فأجريت له عملية جراحية وتقرر إبقاؤه فترة للعلاج، وإذ شعر أن مصيره مرتبط بعدد من الأجهزة الطبية التي تحاصره فقد قرر الهرب. لم يكن يطيق أن يبقى حبيس غرفة لعلاج الأورام السرطانية تحت إسار علاج مرهق، أحس كأنه يختنق، لم ينصت إلى النصائح فقطع العلاج وخرج من المستشفى دون أن يدري إلى أين يمضي، ظل يمشي حتى قادته قدماه إلى قرية تقع عند سفح جبل «نانو» بمقاطعة «يوننان» (حيث تقع منطقة جبلية اسمها «شيشوانغ بانا») قرر العيش هناك كما كان يعيش المبدعون في العصور القديمة: وسط بيئة طبيعية تتردد في جنباتها ضجة التغاريد وجلبة زيز الحصاد تحت أمسيات الريف الصينيّ، تمتد الحقول إلى آخر المدى، يتطلع إليها مايوان وهو يجلب من بين الشقوق ملء الأواني مياهًا تتدفق من شقوق الصخور البركانية.

رغم الظروف الطيبة التي توفرت له في المدينة: المنزل والسيارة والوظيفة المرموقة في الجامعة فقد قرر أن يدع هذا كله جانبًا، ولم يكن قراره هو الهرب بقدر ما كان محاولة للعلاج على طريقته الخاصة وفق منطق مغاير وفلسفة مختلفة! كان قد أحس بصدق أن تجرِبة المرض غيّرت نظرته إلى الحياة، جعلت منه فيلسوفًا، صار يقول لمن حوله: «إن

حياة المرء عبارة عن عقدتين متصلتين في ساق نبات واحدة، العقدة الأولى هي الحياة.. أو الميلاد، أما الثانية فهي المرض، أقصد المرض العضال المهدد للحياة، كنت قبل أن أصاب بالسرطان أعتقد أن الإصابة بهذا المرض نوع من القدر السيّئ، ثم صرت بعد ذلك أفهم أن الداء هدية من السماء، وقبل أن أتم الستين من عمري أعطتني السماء فرصة كي أتعلم معنى الحياة، أعطاني المرض مذاق التمتع بحياة ثانية، وكان أملي في الدنيا ينحصر في أن أكتب قصة أو أن أعمل في التصوير، لقد كنت وأنا تلميذ في المرحلة الإعدادية أحب أن أرسم صورًا للمعلمين، وكان أول ما فعلته بعد استعادة صحتي هو التصوير، وإذ اضطرتني العلة إلى الفلسفة بعد حين فقد عدت إلى الرواية وكتبت «غيلان وشياطين»».

كانت تلك هي رحلةَ العودة إلى الكتابة بعد انقطاع دام نحو عشرين عامًا، ذلك أنه بعد نشر قصته «سهول في كل مكان» في عام ١٩٩١ توقَّف عن الإبداع القصصي، وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ أعلن أن القصة القصيرة قد ماتت، وهو ما أثار ضجة في الحقل الأدبي حتى علّق «وانغ منغ» الروائي ووزير الثقافة الأسبق قائلًا: «بل أظن أن مايوان نفسه هو الذي قضى نحبه إبداعيًّا». بينما كان الرجل يقول عن عزلته -حتى قبل الإصابة بالورم الخبيث- إن ابتعاده عن الكتابة أعفاه من تعقّب الميديا وإزعاجها المتواصل له مؤكدًا أن العيش في كنف العزلة مفيد للتأمل وإعادة ترميم جنبات من الحس والروح، وأن واحدًا مثل هنري ثورو Henry Thorrau ما كان ليبدع عملًا في قيمة Life in the woods إلا وهو شبه منعزل على ضفة نهر، وكذلك لم يكن الصينيّ «هان شاوكونغ» ليقدر على إنجاز عمله الإبداعي «山南水北» إلا وهو مقيم في قريته معتصمٌ بنهجٍ يرى في المناطق القروية ملاذًا للتأمل والكتابة.

عاد مايوان إذن إلى الكتابة بعد أن استعاد عافيته منتصرًا على السرطان، وكان قد فرَّ هاربًا بجلده إلى «هاينان» واتخذ من الماء الطبيعي المنبثق من شقوق الصخور البركانية دواء لتجديد خلايا الحياة والإبداع، رجع إلى الميديا يواجه اهتمام الجمهور والنقاد بعودته، يقول إنه أصبح أكثر قلقًا عن ذي قبل. كان يردد قائلًا: «إن مايوان الذي صعد إلى ذرى تيار الطليعة في الثمانينيات لم يعد موجودًا الآن، توارى أو غرق في بحر الأيام، أما العائد الآن

فهو مايوان آخر أكثر وداعة وهدوءًا وقد فقد روحه الشيطانية، لم يعد «مايوان المجنون» مثلما كان ذات يوم».

العودة إلى الكتابة بعد عزلة أو انقطاع ليست أمرًا سهلًا، وإذا كان كاتبٌ مثل «وانغ تسنغ تشي» 汪曾祺 قد استطاع الرجوع إلى الساحة الأدبية فإن آخرين كثيرين مثل «تشيان شونغشو» 钱锺书 و«خوان رولفو» وغيرهما تثاقلت بهم أقدام الرجوع.

كان قد غادر شنغهاي إلى التبت وعمره تسعة وعشرون عامًا، ثم استقر به المطاف في قرية نائية اسمها «قونيانغ» 姑娘寨 وهو في التاسعة والخمسين، الفارق بين الزمنين هو المسافة التي شهدت تبدّل مسار حياته، كانت الرحلة الأولى بمنزلة طلوع إلى جبل، أما الثانية فقد كانت نزولًا إلى سفح، وقد وصل إليه بروح أكثر صفاءً، والقرية جزء من إقليم اسمه «شيشوانغ بانا» 西双版纳 ولأنها جزء من منطقة كبيرة تقيم فيها قومية «هانيزو» 哈尼族 فقد بدت الأجواء مشجعة على إنتاج عمل روائي متأثر بمناطق الأقليات، وقبل استقراره بالقرية فقد تصادف أن طالع مايوان عملًا قصصيًا بقلم «فنغ ليانغ» 冯良 تدور أحداثه في جنبات قومية «إيتزو» 彝族 وعنوانه «جهة الشمال الغربي» «西南边» ويبدو أنه تأثر بهذا اللون من الإبداع القصصي، وشرع في تأليف عمل آخر جديد اسمه «قرية قونيانغ»، وهو يحمل ملامح السيرة الذاتية مع التطرق إلى جوانب من التاريخ الملحمي لهذه القرية النائية دون أن يتخلى عن طابعه الطليعي الذي ظهر به في منتصف ثمانينيات القرن العشرين متجاوزًا البناء الواقعي للمشاهد ومتجاهلًا الترتيب الزمني للسرد في محاولة للكشف عن عالم المناطق الحدودية، الغني بروعة تكوينه غير المصقول حضاريًّا رغم وقوعه على حافة الهامش الجغرافي للصين، ولو أن شيئًا من ظلال العزلة التي اكتنفت روح مايوان تخللت طابع العزلة المكانية للأجواء القروية البعيدة.

وسواء أكانت تجرِبة المرض أم تفجر مكامن حسٍّ جديد بالناس والأماكن فقد استطاع الرجل أن ينتج نحو سبعة كتب في دلالة على أن القصة لم تمت -وكان قد زعم موتها آنفًا- وأنَّ مُناخًا أدبيًّا جديدًا يمكن أن يفجر الطاقات الكامنة في روح الرواية، وأن بدء عصر

الشاشات الإلكترونية المقروءة لن يمضي بالسرد القصصي الورقي إلى صناديق الزمن القديم ضمن بقايا الآثار التاريخية ومحفوظات المتاحف (مثلما كان يردد من قبل)(7) فبعد فترة النقاهة الطويلة التي قضاها في قرية «قونيانغ» النائية صار يقول: «أشعر في أعماقي بأني ما زلت الرجل المدعوَّ «مايوان» كاتب القصة.. وإذ أعود إلى الكتابة فلأني أريد أن أقول كلمتي مرة أخرى!» وكانت هذه الكلمة الأخرى تأتي بوحي من السفح القروي -المحطة الأخيرة في الرحلة - بينما كانت كلمته الإبداعية الأولى قد نبتت عند أطراف التبت.

في عام ٢٠٠٧ عندما كان يستجم في مياه «هاينان» المتفجرة من بين الشقوق الصخرية، ويعالج فترة ما بين الموت والحياة مثلما صوَّرها في روايته «غيلان وشياطين» كان يقول: «إن كلًّا من «التبت» و«هاينان» هما الموضوعان الرئيسان للكتابة الروائية، وإذا كان المقيم في هاينان يجد نفسه في ارتباط عميق بالجذور فإن التبت هي قمة الجبل المتصل بالسماء.. يجد المرء نفسه هناك عند طرف متصل بمكامن الروح».

التبت هي أرض الفنون -كما قال عنها الفيلسوف البريطاني برتراند رَسِل في القرن الماضي- وذلك حينما كانت تلك الهضبة الصينيّة مثار افتتان أخيلة المثقفين بدءًا من ثمانينيات القرن التاسع عشر.

كم زخرت أشكالٌ مختلفة من التعبير الفني الجمالي في الرسم والتصوير والكتابة بمواطن استلهام صورة تبتية مفعمة بالقوة والعنفوان كأنها أنفاس حياة جبارة جسورة!

من وحي رحلته الأولى إلى الهضبة الغربية البعيدة تدفقت ينابيع حُبه الجارف لقومية التبت الصينيّة، تأثر بثقافتها الدينية، وافتتن بطابعها الحضاري، اغترف كثيرًا من عجائبيّة رموزها التقليدية وهو يكتب الرواية القصيرة التي بين أيدينا «غواية الجبل والأحلام».

كان الشاب مايوان المرتحل من أقصى شرق الصين إلى أقصى غربها قد أنصت مليًّا إلى الأسمار والحكايات والأغاني الشعبية، وتعرف إلى أعماق الوجدان التبتيّ التي تشكلت على

إيقاع الملحمة الشعرية المشهورة باسم «الملك كيصار»، من ثَمَّ فقد استلم سرديته من نثار الحكايا وطابع المكان محاولًا أن يكتب رواية أشبه ما تكون بـ«ملحمة شعرية» ملحمة عن التبت.. عن طقوس الدفن في العراء، وفنون الصيد، وصور متأثرة بسيرة الملك المظفر في الملحمة القديمة.

«غواية الجبل والأحلام» عبارة عن أربع زوايا قصصية في البناء السردي الرئيس، ليس بينها رابطة مباشرة من حيث المحتوى، وكل زاوية قصصية تبدأ من نقطة محددة لكن نهاياتها مفتوحة، والكاتب يعرض لأربعتها دون خيط ناظم للاستطراد القصصي مستخدمًا مهارات سردية متنوعة.

وهو هنا لا يبتعد كثيرًا عما يميزه بصفته كاتبًا كبيرًا ضمن تيار الطليعة، ذلك أن من أبرز سمات هذا الجيل من الكتاب ريادتَه المستندة إلى تفوق في تقنية الكتابة، صحيح أنها كمعظم كتابات مايوان تخلو من تمام الحبكة القصصية؛ كون موضوعها السردي متوزعًا على أربع حكايات متباينة المحتوى مع اتصالها بخيط سردي خفي، هذا صحيح بالفعل، لكن احتفاءه الشديد بتفتيت وحدات السرد، واستغراقه في تجريبية شكلانية متطرفة أنتجت لنا لونًا من الكتابة شبيهًا بما يصنعه اتجاه في فن السينما حين تتعمد اللقطات إظهار المخرج نفسه وهو يُجري حوارًا مع مشاهديه يخبرهم فيه أنه قام حالًا بعملية مونتاج لا تغيب عن فطنتهم! ومن هنا فقد كان اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة هو أساس التشكيل والبناء، نجد هذا في صوره التي يعكس فيها سمات التبت وملامح ثقافتها الدينية، لكن المسافة الهائلة التي باعدت بين القارئ والنص أنتجت إحساسًا بالغموض مع أن الوحدات السردية الأربعة ليست في حقيقتها إلا عدة أجزاء من حكاية واحدة (وليست مقاطع قصصية منفصلة) فضلًا عن أن مايوان يعتمد كثيرًا على رهافة حس القارئ، ويطلب منه التخلي عن فعل التلقي السكوني السلبي سعيًا إلى المبادرة بالاشتراك في رسم خطوط المعنى العام للسرد بغية تهيئة الأجواء للتفاعل مع النص دون عقبات.

هذا هو الغموض الذي تذرعت به بعض الصحف لعدم نشر قصصه، ثم هو الغموض الذي أضاف هالات من الروعة حول صورة التبت كما تبدّت في روايته الصغيرة هذه. كان مايوان في أول أمره صاحب مزاج، شديد الهوس بتقنية كتابة جديدة ومعالجة مختلفة للقصة من منظور جيل جديد، ورغم محاولات أصدقائه في تقديم أعماله إلى ساحة النشر فقد تعذر قبول بعض محاولاته المبكرة. إلى أن كان شتاء العام ١٩٨٣ بعد عودته من التبت من رحلة دامت عامًا تقريبًا، جلس كاتبُنا منكمشًا على نفسه في أحد فنادق سيتشوان إثر عاصفة ثلجية كي يضع المسودة الأولى لـ«غواية الجبل والأحلام» وهو متدثر بالأغطية وقد ترك لخياله العنان محلقًا في أجواء التبت كما تبدت لذاكرته، فرغ من كتابتها فدفع بها إلى النشر في مجلة «شنغهاي الأدبية» «上海文学» وكالعادة جاءه الرد بأن القصة غير مفهومة سوى أن عددًا ممَّن طالعوها من النقاد ألحُّوا في نشرها، في ١٩٨٤ جرى طرحها للنقاش ضمن موضوعات ندوة أدبية أقيمت في هانجو 杭州 وتم ترشيحها مرة أخرى للنشر في المجلة نفسها، وكان الكاتب الكبير هان شاوكونغ 韩少功 هو الذي تبنَّى هذا الترشيح بقوة، وبالتالي فقد نُشرت بالفعل في فبراير ١٩٨٥، وذاع اسم الكاتب إثر هذا، بل صار أحد أهم المبدعين في تيار الطليعة.

كانت تلك الرواية القصيرة واحدة من أهم العلامات الأدبية في ظهور التيار التجريبي في الرواية الصينيّة إبان منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، ورغم أن هذا التيار المعروف نقديًّا باسم «تيار الطليعة» يعدُّ تيارًا غير منتظم النهج في الكتابة 无组织流派 فإن تأثيره في الأدب الصينيّ الحديث والمعاصر كبير جدًّا حتى امتدت آثار طابعه التجريبي إلى نهج الكتابة القصصية بشكل عام، وانتشرت تقنية التركيز على شكل الحكي مع إغفال أهمية الترابط بين مفاصل السرد حيث يطلق القاصُّ لنفسه العنان في الحكي تبعًا لنقطة اهتمام مركزية دون أن يعبأ بالتواصل مع السياق المنطقي المتوقع من جانب القارئ، وإذ ينأى السرد عن رسم أدوار محددة للشخصيات بشكل عمودي، وعن التحديد الزمني والمكاني الواضح للأحداث تمتلئ ساحة النص بآفاق غير محدودة لتوليد المعنى. وفي السمات العامة للأسلوب القصصي عند تيار الطليعة نلاحظ تركيز الاهتمام على النشاط

الذهني اللاشعوريّ في مسعى للغوص داخل أعماق النفس احتفاءً بالمكامن الأسطورية وأغوارها الغامضة المليئة بغواية آسرة، وهي الغواية التي تكسب النص طاقة هائلة للكشف عن تلك الدفائن التي غاصت عميقًا في أغوار النفس مع تقلّب الزمان عسى أن يتواصل المرء مع أنقى مناهل الروح وأصفى مشاربها.

عن ظلال الغموض التي تكتسي بها معظم أعماله وخصوصًا هذه الرواية يقول مايوان: «إن الحياة نفسها تجري على نسق غير منطقي، فلماذا ينبغي لقصة قصيرة أو رواية قصيرة أن تلتزم اتساقًا منطقيًا؟ ثم إن حشد نثار الأشياء غير المتجانسة يخلق تلقائيًا عملية استجابة مزودة بآلية نفسية جديدة، هذه الآلية تكشف عن طاقات عظيمة لتشكيل المعنى».

عندما سُئِل عما إذا كان مطلوبًا من القارئ أن يشكل بنفسه محتوى رمزيًا للمعنى الغائب في ثنايا السرد أجاب قائلًا: «لو سألني أحدهم عما كنت أقصده في الموضع كذا من القصة كيت لأجبته بكل الصدق قائلًا: إني أنا نفسي لا أملك توضيحًا محددًا».

ولعل هذا الأسلوب السردي الذي يسعى إلى خلخلة الانسجام الجمالي بين عناصر القصة التقليدية يسعى بشكل ما إلى تهيئة منطقة «ركام المعنى» التي تعيد الاعتبار الجمالي إلى أغوار نفسية ضبابية قامت عليها «وجهات نظر» تحليلية في علم النفس، أفادت في النفاذ إلى رمزية الأسطورة، نجد هذا عند «كارل يونغ»، ونجده كذلك في اجتهادات الأنثروبولوجيا الثقافية عند «مالينوفسكي» فضلًا عن أن هذه المناطق الضبابية قد أقامت بعد هذا كله صرحًا جديدًا للاتجاه الفني الجمالي في قصة تيار الطليعة الصينيّة.

يزعم بعض نقاد الأدب الصينيّين أن كاتبنا تأثر بـ«بورخيس»، لكن الرجل ينفي هذا ويقول إنه متأثر بـ«هيمنغواي» ويميل إليه أكثر من غيره، فقد تعلّم منه أشياء متميزة في الكتابة، ولئن كان قد ورث عن بورخيس مزاجًا غنوصيًا فأنت تجده في معظم الأحيان مستفيدًا من عناصر إبداعية كثيرة من هيمنغواي، ومن ناحيته فهو لا ينكر تأثره ببورخيس، لكن حتى ومع افتراض التقارب بينه وبين هذا الأخير من ناحية الشكل القصصي فإن هذا لا يعني امتلاك مايوان لزاوية يعبِّر بها عن رؤيته للعالم، ذلك أن كتاباته اتجهت في معظمها

إلى تصوير غموض العالم واستتاره وراء ضبابية ملغزة، وإذا قلت إنه لم يكن يملك رؤية للعالم فهذا لا يعني أنه انطلق في إبداعه من فراغ بل كانت له دائمًا فلسفته في الكتابة، وهي فلسفة تقوم على مبدأ يرى..«أن المواجهة القدرية مع الفشل هي التي توسِّع دروب الحياة، وتلهم الشجاعة، وتبدع طاقات الخيال». وفيما عدا استفادته من بورخيس فلم يكف دومًا عن الإشادة المتكررة بقيمة ما تعلمه من كتاب آخرين، منهم: لاكروف، ومارك توين، وسومرست موم، وسانت إكسيوبري، وإنْ تراجَع عن تقديره السابق لكلٍّ من: ماركيز، ويوسا.

ثم إن تقديره لهم لا ينطلق من تقدير فرديٍّ لكل كاتب على حدة، بل من ملاحظته لتلك البؤرة المركزية التي تشير إليها مجمل أعمالهم، وهي «التجريب والمغامرة» في التقنيات والرؤى والمنطلقات الإبداعية، وبالمناسبة فإن مايوان ينظر باهتمام كبير إلى كل ما يمكن أن يشكل «نقطة المركزية» في قيمة المبدعين أو أعمالهم، ويعدُّها مرتكز القيمة الفنية الجمالية التي تحتشد فيها مقومات الإبداع الروائي، وعلى سبيل المثال فإن تقديره الخاص لهذا العمل الروائي الذي أقدمه إلى القارئ في اللغة العربية: «غواية الجبل والأحلام» يصدر عن إحساسه بأنه «تمثيل مكثف لقيمة إنتاجه القصصي بشكل عام»، وعلى حد تعبيره -هو نفسه- نجده يقول: «كل كتاباتي قبل رواية «غيلان وشياطين» عبارة عن تمهيد لها، والحقُّ أيضًا أن رواية «غواية الجبل والأحلام» كانت ضمن المعنى نفسه تكثيفًا لما سبقها من إبداع، أقصد أنها كانت نتفًا وأجزاء صغيرة تجمعّت واحتشدت ثم استقطرت خلاصتها في سياق الكتابة، أحسب أن كتاباتي كلها على مرّ الحياة هي كتاب واحد».

بعض الكتابات النقدية حول أعمال مايوان ترى أنه بكتاباته الأخيرة مثل: «غيلان وشياطين» و«بحر غربي بلا قارب» و«جدار مليء بالصور الغريبة» و«قرية قونيانغ» قد عدل عن خصائصه بصفته روائيًا طليعيًا عائدًا إلى السرد الواقعي على اعتبار أنه وقد انتهى به المطاف إلى الإيمان بأن التجرِبة الإنسانية لا يمكن لها أن تستقصي أعماق الوجود في كل زاوية وركن منها، فقد استدار بالقصة راجعًا إلى دائرة السرد التقليدي (خصوصًا

وقد صار ينظر باحترام شديد فيما بعد إلى كلاسيكيات الأدب الصينيّ) فهل معنى هذا أنه خرج من دائرة الرواية الطليعية؟ وأضيفُ من عندي: هل من الثابت أنه كان ضمن هذه الدائرة من الأصل؟

هناك آراء نقدية متضاربة في الرد على هذا السؤال، هاك بعضًا منها:

- ثمة قائل بأن مايوان أحد أهم أعلام تيار الطليعة حيث استطاع كاتب صيني ولأول مرة أن يضع السرد فوق الحكاية، وأقام رؤية تعتمد على الربط بين علاقات لا تخضع لمنطقية السبب والنتيجة، وهو الأسلوب الذي تميّز بتفرده وشكّل فيما بعد تيارًا قويًّا ومتصلًا في الكتابة القصصية الصينيّة حتى غدت أجيال من الروائيين تنتقل من النقطة المركزية في السرد من التساؤل بـ«ماذا نكتب؟» إلى «كيف نكتب؟» مما بشّر بتحول جذري في مفاهيم الكتابة القصصية واتجاهاتها، لكن قصص الطليعة عجزت بعد هذا عن معالجة العلاقة بين الواقعية والأدب فحدثت تحولات كبيرة بين صفوف أبناء هذا التيار عقب تجرِبة الازدهار الأولى، واتجه كل واحد منهم باحثًا عن طرق جديدة في الكتابة، بل قد توقف مايوان تمامًا عن الإبداع بعد صدور روايته «الكيلو رقم واحد» «零公里处» قبل أن يعود بعد عشرين عامًا إلى الكتابة. لكنها العودة التي اقترنت بتراجعه عن السرد الطليعي حيث بدا أقرب إلى طابع السرد الكلاسيكي!

- ثم إن هناك رأيًا آخر يرد على هذا قائلًا بأن مايوان لم يكن له علاقة أصلًا بالطليعة، بل هو كاتب قصة بالمعنى التقليدي أساسًا، لأنه يميل إلى السرد الموضوعي ويغفل التصوير النفسي، أما مسألة انتمائه إلى تيار الطليعة فتقديرها نابع من ريادته في شكلٍ من التجاوز الإبداعي، والريادةُ عنده تستند إلى تفوق في تقنية الكتابة مما أكسب قصصه مكانة متميزة على ساحة الأدب الصينيّ. وهذا لا يجعله بالضرورة كاتبًا طليعيًّا.

- ثم هناك -فضلًا عن هذا - رأي الكاتب نفسه إزاء جملة التقديرات النقدية في أعماله، ولنطالع ما قاله هو بنفسه في هذا الصدد: «بدءًا من العام ١٩٨٥ لم تتوقف التقديرات النقدية عن تحديد موقعي على خارطة الكتابة القصصية، وتوالت التصنيفات والأحكام

فوق رأسي كأنها قبعات مختلفة الأنواع، منها ما وضع كتاباتي تحت طائفة «تيار الحساسية الجديدة في القصة»، ومنها ما زعم أني أكتب «القصة البنيوية»، ومنها ما اكتشف فجأة أني أكتب «القصة التجريبية»، وتوالت التصنيفات من كل نوع إلى أن استقرت قبعة واحدة فوق رأسي مكتوب عليها «القصة الطليعية»، وبقيت هي التقدير النقدي الثابت حول كتاباتي على مدار الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٩٠، والسبب أن الاهتمامات النقدية تركزت طويلًا على الشكل الخارجي للقصة بينما المتخصصون يهتمون لكيفية الكتابة، وكلنا نعرف أن القصة بالمعنى التقليدي تتركز على الموضوع.. على محتوى النص.. ماذا نقول في القصة؟ هذا هو أهم شيء، وفي عالم أكثر تعقيدًا يوجد سقف أعلى لمطلب قراء القصة حيث يجري التساؤل بـ«كيف نكتب الحكي»؟ فالمطلوب إذن اختراق الشكل عبر أحكام قيمة جديدة، أما السرُّ في تسمية كتاباتي بـ«التيار الطليعي» فيرجع إلى استناد مؤرخي الأدب في ذلك الوقت إلى معيار واحد هو أنني ورفاقي من الكتاب ابتكرنا رؤية جديدة وتقنية مغايرة»(8).

هذا التضارب في الآراء النقدية ومعها رأي الكاتب نفسه يرجع -من وجهة نظر المترجم كاتب هذه المقدمة - إلى درجة من التشوش فيما اصطلح النقاد على تسميته بمصطلح «التيار الطليعي» فقد ظهر وكأنه يشير إلى حالة محددة في الإبداع الروائي الصينيّ بدأت في ثمانينيات القرن العشرين لكنه -فيما أتصور- تحول إلى لافتة عريضة تضم كل ما يضاد التيار التقليدي في الرواية الصينيّة، وبالتالي فهو ينطوي على تباينات كثيرة تعددت بها مشارب الكتاب واتجاهاتهم.

وعندما نتأمل طبيعة تكوين الأجيال والمراحل الأدبية الحديثة والمعاصرة في الصين يمكننا الزعم بأن روح الاتجاه الطليعي في الأدب الصينيّ الحديث قد بزغت مع جيل الشباب إبان الثورة الثقافية الصينيّة (١٩٦٦-١٩٧٦) وأن جذوره في مجال الشعر والقصة نبتت عند جيل الأدباء الشبان وقتئذ، لكن تجرِبة الانفتاح والإصلاح في الثمانينيات هي التي شكلت قوته الدافعة وكيانه القويّ، هذا إذا فهمنا الاتجاه الطليعي بوصفه: «الحالة

الاستقصائية التي ظهرت جبهةً أو اتجاهًا فنيًّا جماليًّا يتمرد على الوضع الأدبي السائد، ويخلق لنفسه أدوات ورؤية ومنظورًا مغايرًا.

كانت تلك هي الموجة الأولى من تيار الطليعة، ومن أبرز نماذجها قصة «رائد الفصل» «班主任» للكاتب «ليو شينوو» المنشورة في ١٩٧٧ في العدد الحادي عشر من مجلة أدب الشعب «人民文学» أما الموجة الثانية له فقد تأكد وجودها بدءًا من ١٩٨٤ بالتزامن مع ثورة السرد والتجريب اللغوي، وكان مايوان أحد أبرز ممثلي هذا الاتجاه، يليه الروائي مويان ومن بعدهما جاء: جيفي، وسون كانلو، وتسان شيوي، وسوتونغ، ويوهوا، وهونغ فنغ...إلخ.

ويرجع السبب في ظهور هذا المنحى الإبداعي إلى الأحوال الاجتماعية والسياسية التي شهدتها الصين في الثمانينيَّات إبان سياسة الإصلاح والانفتاح حيث كان من شأن التطور الاقتصادي السلعي المتأثر باتجاهات جمهور المستهلكين أن يعمل على تلبية حاجات ثقافة لها شروطها وخصائصها، وكانت البيئة العامة المحيطة بالأدب تضعه في مواجهة مع ثقافة الميديا المصورة، ومع اتجاه جديد بدأ يبزغ مشروطًا بحركة السوق التجارية، ومن ثَمَّ فقد كان الأدب يجابه مخاطرة حقيقية بقرَّائه في حال جموده عند مواقعه السابقة ومواقفه التي درج عليها إبان عصره الحديث منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية.

لا يعني هذا أن الأدب الحديث بدءًا من ١٩٤٩ حتى منتصف الثمانينيات كان متجمدًا دون حراك بل العكس تمامًا، ففي رأي الكاتب أنَّ الأدب الصينيّ منذ تأسيس الصين الشعبية إلى ما قبل ظهور التيار الطليعي كان قد شهد تطورًا متلاحقًا وانفتاحًا على الأدب العالمي، عندما كان يُنظر إلى العالم وقتئذ بوصفه الساحة الملهمة بالتقدم وتجاوز مأزق الجمود والتخلف، كانت الساحة العالمية في ذلك الزمان عبارة عن جبهتين متقابلتين، وقد اختار الأدب الصينيّ أن ينفتح على الساحة الواعدة بالتطور، وهذا طبيعي وضروري وإنساني جدًّا من وجهة نظر الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة يومئذٍ.

وفي ظل جماليات الأدب بتعريف الإيديولوجيا السائدة في ذلك الحين، كانت النوافذ مفتوحة على تنوع ثقافي هائل، وهو ما عمل على تأصيل الوعي الذاتي لدى كثير من المبدعين، وكانت الذائقة الأدبية تشهد تكاملًا بين الذاتي والموضوعي في العملية الإبداعية، بيد أن الجانب الذاتي كان قد توارى كثيرًا دون أن يختفي تمامًا، إلى أن جاء أدب الفترة الجديدة وظهرت تياراته المختلفة: «أدب الجراح»، و«أدب المراجعة»، و«التيار الطليعي»... إلخ، ليحدِث توازنًا جديدًا في اتجاهات الكتابة ومسارات الإبداع.

محسن فرجاني

القاهرة في ٢٠١٩

(7) كان مايوان يؤمن بـ«موت القصة» بمعنى أن السرد القصصي ابن الوسائط الورقية قد انقضى زمنه بوصفه جزءًا من التاريخ الفني الجمالي العام مؤكدًا على ضرورة التمييز بين القصة بمعناها الكلاسيكي والنص السردي واسع الانتشار، مضيفًا أن الشاشات الإلكترونية ليست وسيلة مناسبة لقراءة القصة أو إبداعها، وإلا أصبح الأمر لونًا من العذاب، بل إن الوسائط الإلكترونية سوف تأتي بنمط جديد تمامًا من السرد الذي لم يظهر حتى الآن! وربما كان الباقي من القصة هو انتقال روحها إلى سياق وجود آخر، إذ تلبست بالمسرح أو الشعر الغنائي حيث تواصل بقاءها بكل الطرق، حتى وجودها المتحفي لا يعني زوالها التام؛ لأن ثمة من يقبلون بشغف على التحف القديمة. (المترجم)

(8) (http//news.163.com/) ،«山东南报: «王晓易

1. الغلاف
2. غواية الجبل والأحلام
3. غواية الجبل والأحلام
4. (١)
5. (٢)
6. (٣)
7. (٤)
8. (٥)
9. (٦)
10. (٧)
11. (٨)
12. (٩)
13. (١٠)
14. (١١)
15. (١٢)
16. (١٣)
17. (١٤)
18. (١٥)
19. (١٦)
20. تعقيب المترجِم